ليتيسيا كولومباني

الضفيرة

رواية

مكتبة 468

المركز الثقافي العربي

ثلاث نساء، ثلاث حيوات، ثلاث قارات.
تتغف واحد للحرية.

مكتبة | 468

ليتيسيا كولومباني

الضفيرة

الكتاب
الضفيرة
تأليف
ليتيسيا كولومباني
ترجمة
معن عاقل
الطبعة
الأولى، 2018
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-880-0
جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي
الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: 212 522 305726+
Email: markaz.casablanca@gmail.com
بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01 750507 ـ 01 352826
فاكس: 961 1 343701+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

العنوان الأصلي للرواية:
La tresse
Laetitia Colombani
© Grasset & Fasquelle, 2017
All rights reserved

مكتبة
t.me/ktabrwaya
٢٠١٩ ٦ ٢٣

ليتيسيا كولومباني

مكتبة | 468

الضفيرة

رواية

ترجمة: معن عاقل

المركز الثقافي العربي

إلى أوليفيا
إلى النساء الشجاعات

ضفيرة: جمع ثلاث خصلات من الشعر، ثلاث حزم متداخلة.

«. . . سيمون، يوجد سرّ عظيم في غابة شعرك»

ريمي دو غورمون

«امرأة حُرة هي بالضبط نقيض امرأة خفيفة»

سيمون دو بوفوار

مقدّمة

هذه بداية حكاية
حكاية جديدة في كل مرّة.
تنساب هنا، تحت أصابعي.

في البداية، هناك الحامل.
ولا بد للهيكل أن يكون متيناً ليتحمّل الكل.
من الحرير أو القطن، للمدينة أو المسرح، لكلٍّ منهما حسابه.
القطن أكثر مقاومة،
الحرير أرقُّ وأنعم.
لا بد من مطرقة ومسامير.
ولا بد من البدء بهدوء.

ثم تأتي الحبكة.
الجزء الذي أُفَضّله.

على النول أمامي
تتمدد ثلاثة خيوط نايلون.
أمسك الخصلات في حزمةٍ، ثلاث ثلاث،
أعقدها دون أن تتقصف.
وأبدأ من جديد
آلاف المرّات.

أحبُّ هذه الساعات من العزلة، ساعات ترقص فيها يداي.
إنها باليه غريبة تؤديها أناملي.
تكتب حكاية ضفيرة وجدائل.
هذه الحكاية هي حكايتي.

ومع ذلك، لا تخصّني.

سميتا

قرية بادلابور، ولاية أوتار براديش، الهند.

تستيقظ سميتا وشعور غريب يعتريها، نوع من الإلحاح اللطيف، كفراشة وليدة في جوفها. ستتذكر هذا اليوم طيلة حياتها، فهو اليوم الذي ستدخل فيه ابنتها المدرسة.

لم تطأ قدما سميتا أرض المدرسة قط. فهنا في بادلابور لا يرتاد الناس من أمثالها المدرسة. تنتمي سميتا إلى جماعة الداليت المنبوذة. إنَّها من أولئك الذين سماهم غاندي أبناء الله. إنهم خارج الطبقات الاجتماعيّة، خارج النظام، خارج كلّ شيء. فئة معزولة حُكمَ عليها بأنَّها أنجس من أن يختلط بها الآخرون، ونفاية غير جديرةٍ بأن يتولوا أمر فرزها، كما يفصلون الخير عن الشر. هناك الملايين من أمثال سميتا يعيشون خارج القرى وخارج المجتمع، على هامش الإنسانيّة.

في كل صباح، تُمارس الطقس ذاته. ومثل أسطوانة موسيقية مخدوشة تُعيد إلى ما لا نهاية عزف سيمفونيّة جهنميّة، تستيقظ سميتا في كوخ صغير تستخدمه كمنزل، قرب حقول زرعَتها طبقة الجات. تغسلُ وجهها وقدميها بماء جلبته أمس من البئر المخصص لهم. من المستحيل الاقتراب من البئر الآخر، بئر الطبقات الأعلى، مع أنَّه قريب ويَسهُل الوصول إليه. مات البعض لسببٍ أقل من هذا. تجهّز نفسها، تسرّح شعر لاليتا وتعانق ناغاراجان. ثم تحمل سلّتها المصنوعة من أغصان الأسل المجدولة، هذه السلّة التي كانت تحملها أمّها قبلها وتسبّب لها الغثيان لمجرد رؤيتها، هذه السلّة ذات الرائحة المتأصلة، الحادة دائماً، التي تحملها طوال النهار كما يحمل المرء صليباً، هي عبءٌ مُخْزٍ. هذه السلّة هي محنتها. لعنةٌ وعقابٌ. لا بد أنَّها اقترفت شيئاً في حياة سابقة، ويجب أن تدفع الثمن وأن تُكَفِّرَ عن ذنبٍ، وعلى أيّ حال ليس لهذه الحياة أهميّة أكثر من الحيوات السابقة ولا اللاحقة، إنَّها حياة مثل الحيوات الأخرى، كما كانت تقول أمَّها. هكذا هي حياتها.

هذه هي **الدارما**(*) الخاصة بها، واجبها، مكانها في العالم. إنَّها مهنة تنتقل من الأم إلى ابنتها منذ أجيال. النبش في القمامة، تعني بالإنكليزيّة «مُسْتَخْرِجْ». كلمة محتشمة تُشير إلى واقع غير

(*) الدارما: في السنسكريتيّة تعني القانون الطبيعي، وبالمعنى الأخلاقي تعني الداراما الطريقة الصحيحة في العيش والتواصل، وفي الديانات الهندية تشير إلى القانون والعرف، وهي العدالة المثالية في الحياة. (المترجم)

محتشم. ما تفعله سميتا لا توجد كلمة تصفه. تلتقط براز الآخرين بيدين عاريتين طوال اليوم. كانت في سن السادسة، بعمر لاليتا اليوم، حين اصطحبتها أمّها معها لأول مرة. انظري أولاً وبعد ذلك ستقومين بالعمل. تتذكر سميتا الرائحة التي هاجمتها بعنف مثل سرب دبابير، رائحة لا تُحتمل، فظّة. تَقَيَّأَتْ على جانب الطريق. قالت أمّها، ستعتادين عليها. لقد كذِبَت. فهي لم تعتَد على هذه الرائحة. تعلّمت أن تحبس أنفاسها وأن تعيش وهي تقطع نفسها، وقال لها طبيب القريّة: يجب أن تتنفسي، انظري كيف تسعلين. يجب أن تأكلي. الشهيّة، هي ما افتقدته سميتا منذ زمن طويل. لم تعُد تتذكر كيف هي الشهيّة والشعور بالجوع. تكتفي بالقليل من الطعام، بالحدّ الأدنى، حفنة أرز منقوعة بالماء تقسر نفسها على تناولها على مضض منها.

ومع أنَّ الحكومة وعدت بمراحيض للبلد، لكنَّها للأسف لم تنفّذها حتى الآن. وفي بادلابور كما في الأمكنة الأخرى، يتغوّط الناس في العراء. الأرض ملوثة في كلّ مكان، والأنهار والحقول والجداول اتسخت بأطنان من النفايات. تفشّت الأمراض فيها كشرارة في البارود. يعرف السياسيّون ذلك: فما يطالب به الشعب قبل الإصلاحات وقبل المساواة الاجتماعيّة وحتى قبل العمل، هو هذه المراحيض. الحق في التغوّط بكرامة. تضطر النساء في القرى إلى انتظار حلول الليل كي يذهبنَ إلى الحقول، وقد تعرَّضن لاعتداءات عديدة. وجهَّزَ الأوفر حظاً خلوة في فناء منازلهم أو في

صدرها، عبارة عن حفرة صغيرة في الأرض يدعونها على استحياء «مراحيض جافة»، بيوت خلاء تأتي نساء الداليت لإفراغها كلّ يوم بأيدٍ عارية. نساءٌ مثل سميتا.

مكتبة

تبدأ جولة سميتا نحو الساعة السابعة. تأخذ سلّتها ومكنستها المصنوعتين من نبات الأسل. تعرف أنَّ عليها تفريغ عشرين منزلاً كلَّ يوم وليس لديها وقت تضيعه. تمشي على جانب الطريق وعيناها مطرقتان إلى الأرض ووجهها مغطى بوشاح. يجب على الداليت في بعض القرى أن يشيروا إلى وجودهم بوضع ريشة غراب. ويُحْكَمُ عليهم في قرى أخرى أن يمشوا حفاةً - يعرف الجميع قصّة المنبوذ الذي رجموه لأنَّه ارتدى فقط خفّاً. تدخل سميتا المنازل من الباب الخلفي المخصّص لها. يجب عليها ألّا تصادف ساكنيه وعلى الأخص ألّا تكلّمهم. فهي ليست محظورة على المساس فقط، وإنما يجب أن تكون غير مرئيّة أيضاً. تتلّقى كأجرٍ بقايا الطعام وأحياناً ملابس قديمة يرمونها لها على الأرض. بلا ملامسة ولا نظر.

أحياناً لا تتلقى شيئاً البتة. إحدى عائلات الجات لم تعُد تعطيها شيئاً منذ أشهر. أرادت سميتا التوقّف. وأخبرت ناغاراجان بذلك في المساء، فهي لن تعود إليهم وليس أمامهم إلّا أن ينظّفوا برازهم بأنفسهم. لكنَّ ناغاراجان شَعَرَ بالخوف: إذا لم تذهب سميتا إلى هناك، سيطردونهم، وليس لديهم أرض يأوون إليها. سيأتي الجات ويحرقون كوخهم. إنَّها تعرف ما يمكن أن يفعلوه. «سنقطعُ

لكَ ساقيك»، كانوا قد قالوا لأحدهم. وقد عُثِرَ على الرجل مقطَّعاً ومحروقاً بالأسيد في أحد الحقول المجاورة.

أجل، تعرف سميتا ما يمكن للجات أن يفعلوه.

لذلك ستعود إليهم في اليوم التالي.

لكن هذا الصباح ليس يوماً كبقيّة الأيام. فقد اتخذت سميتا قراراً فرضته على نفسها كأمر بديهي: ستذهب ابنتها إلى المدرسة. وبذلَت ما بوسعها لإقناع ناغاراجان. قال: ما الفائدة؟ ربما ستتعلم القراءة والكتابة، لكن لن يُؤمِّنَ لها أحدٌ عملاً. يولد المرء هنا منظِّف مراحيض، ويبقى هكذا حتى مماته. إنَّها وراثة، دائرة لا يمكن لأحدٍ الخروج منها. إنَّها **كارما**(*).

لم تتنازل سميتا. أعادت الحديث عن ذلك في اليوم التالي، وفي الأيام التي أعقبته. ترفض أن تصطحب لاليتا معها في جولة: لن تُريها حركات منظِّفي المراحيض، ولن ترى ابنتها تتقيأ في الحفرة كما حدثَ لها مع أمها من قبل، لا، ترفض سميتا ذلك. يجب أن

(*) الكارما: هي مفهوم أخلاقي في المعتقدات الهندوسية والبوذية يشير إلى مبدأ السببية حيث النوايا والأفعال الفردية تؤثر على مستقبل الفرد. حُسن النية والعمل الخيِّر يُسهمان في إيجاد الكارما الجيدة والسعادة في المستقبل، النية السيئة والفعل السيئ يُسهمان في إيجاد الكارما السيئة والمعاناة في المستقبل. (المترجم)

تذهب لاليتا إلى المدرسة. وبإزاء إصرارها انتهى ناغاراجان إلى الخضوع. يعرف زوجته؛ إرادتها هي سلطة. هذه الداليتيّة الصغيرة ذات البشرة السمراء التي تزوّجها منذ عشر سنوات أقوى منه، وهو يعلم ذلك. لذا انتهى إلى الخضوع. ليكن. سيذهب إلى مدرسة القرية، وسيتحدث إلى البرهمي.

ابتسمت سميتا خفية لانتصارها. تمنَّت لو أنَّ أمّها قاتلت من أجلها، وودّت لو أنَّها عبَرت باب المدرسة وجلست بين الأطفال الآخرين. وتعلّمت القراءة والحساب. لكن ذلك لم يكن ممكناً. فوالد سميتا لم يكن رجلاً طيباً مثل ناغاراجان، وإنَّما كان نزقاً وعنيفاً. كان يضرب زوجته كما يفعل الجميع هنا. وكان غالباً ما يردّد: المرأة ليست نداً لزوجها. إنَّها تنتمي إليه. هي مُلْكُه وجاريته. وعليها أن تخضع لإرادته. بالتأكيد، كان والدها يُفضّل إنقاذ بقرته أكثر من إنقاذ زوجته.

أمّا سميتا فقد حالفَها الحظ: لم يضربها ناغاراجان قطّ ولم يشتمها. وحتى حين وُلِدَت لاليتا، وافق على رعايتها. وغير بعيد عن هنا، يقتلون الفتيات عند ولادتهنَّ. في قرى راجاستان يدفنوهنّ أحياء في صندوق تحت الرمل بعد ولادتهن مباشرة. وتمضي الفتيات الصغيرات ليلة قبل أن يَمُتن.

لكن ليس هنا. تتأمل لاليتا وهي جاثية فوق أرض الكوخ بترابها

الممهّد، مستغرقة في تسريح شعر دميتها الوحيدة. إنَّها جميلة، ابنتها. ملامحها رقيقة وشعرها طويل حتى خصرها، تسرّحه سميتا وتجدله كلّ صباح.

تقول في سرّها: ستتعلّم ابنتي القراءة والكتابة، وهذه الفكرة تسرّها.

أجل، اليوم هو نهار ستتذكّره طوال حياتها.

جوليا

باليرمو، صقلية.

جوليا!

تفتح جوليا عينيها بمشقّة. صوت أمّها يدوي من الأسفل.

جوليا!
ساندي!
سوبيتو!

تحاول جوليا أن تدفن رأسها في الوسادة. فهي لم تنَم بالقدر الكافي -وقد أمضَت الليل في القراءة أيضاً. لكنَّها تعرف أنَّ عليها النهوض. حين تنادي الأم، لا بد من الطاعة- هذه هي الأم الصقلية.

جوليا!

تغادر الشابة سريرها على مضض. تنهض وترتدي ملابسها بعجلة، قبل أن تنزل إلى المطبخ حيث عِيْلَ صبر **الاما**. سبَقَتها أختها أديلا في النهوض، وها هي منهمكة بطَلْي أظافر قدميها على طاولة الإفطار. تثير رائحة المحلول اشمئزاز جوليا. تقدِّم لها أمّها فنجاناً من القهوة.

سافرَ والدكِ.
وأنتِ مَن ستفتحين هذا الصباح.

تمسك جوليا مفاتيح الورشة وتغادر المنزل بسرعة.

لم تأكلي شيئاً.
خذي شيئاً ما!

تتجاهل كلمات أمّها، وتمتطي دراجتها وتبتعد بسرعة كبيرة. يُنعشها قليلاً هواء الصباح البارد. تلفح الريح وجهها وعينيها وهي تعبُر الجادات. وتَخِزُ روائح الحمضيات والزيتون أنفها عند محاذاتها السوق. وتمرّ ببسطة سَمَّاك يعرض السردين والأنقليس الذي اصطيد حديثاً. تُسرِع وتصعد فوق الأرصفة وتغادر ساحة بالارو حيث ينادي الباعة الجوالون الآن على الزبائن.

تصل إلى رَدْبٍ، بعيد عن طريق روما. هناك أقام والدها ورشته، في سينما قديمة اشتراها منذ عشرين عاماً - وهو عمر جوليا. كانت محلاته آنذاك ضيقة وهو ما فرض عليه الانتقال. على الواجهة، لم يزل بالإمكان تمييز المكان الذي كانت تعلّق فيه إعلانات الأفلام. بات بعيداً الزمن الذي كان فيه سكان باليرمو يهرعون لمشاهدة كوميديا ألبيرتو سوردي وفيتوريو غاسمان ونينو مانفريدي وأوغو توغنازي ومارسيلو ماستروواني... اليوم أُغْلِقَتْ العديد من الصالات، وتَحَوَّلَتْ مثل سينما هذا الحي الصغيرة إلى ورشة. رُتِّبت غرفة العرض وجُهِّزَت لتغدو مكتباً، وتوجَّب فَتح نوافذ في الصالة الكبيرة لتحصل العاملات على ما يكفي من الضوء اللازم للعمل. نفذ **البابا** بنفسه جميع الأعمال. المكان يشبهه، تفكر جوليا: إنَّه فوضوي وحارّ مثله. ورغم ثورات غضبه الشهيرة، كان بيترو لانفريدي مقدَّراً ومحترماً من عاملاته. إنَّه أبٌ محبّ، مع أنَّه متطلِّب ومتسلط، ربَّى بناته على احترام النظام، وعلَّمهنَّ طعم العمل المتقَن.

تُمسك جوليا المفتاح وتفتح الباب. في العادة يكون والدها أوّل مَن يصل. يحرص على استقبال عاملاته بنفسه - يروق له أن يردِّد: هكذا يكون رب العمل. لديه دوماً كلمة لإحداهنَّ، وتنبيه للأخرى، وإيماءة لكلّ واحدة. لكنَّه ذهب اليوم في جولة على مصفِّفي الشعر في باليرمو وضواحيها. ولن يعود إلى هنا قبل الظهيرة. لذلك جوليا هي ربَّة المنزل هذا الصباح.

في هذا الوقت، كلُّ شيء هادئ في الورشة. وعمّا قليل، سيضجّ المكان بألف حديث وبأغانٍ وصيحاتٍ، لكن يسوده الآن صمتٌ يتخلّله صدى خطوات جوليا تمشي حتى غرفة الملابس المخصَّصة للعاملات وتضع أمتعتها في خزانة مدوَّن عليها اسمها. تلتقط سترتها، وتندسّ كما في كلِّ يوم في هذه البشرة الجديدة. تجمَع شعرها وتلفّه بشكل كعكة مشدودة وتغرزُ فيه الدبابيس بخفة. ثم تغطي رأسها بوشاح، فالحذر ضروري هنا - يجب ألّا يختلط شعرها بالشعر المعالَج في الورشة. وهكذا بعدَ أن ارتدت لباسها ووضَّبت شعرها، لم تعُد ابنة رب العمل: إنَّها عاملة مثل أيّة عاملة أخرى، موظفة في مؤسسة لانفريدي. وهي تحرص على ذلك. فقد رفضت دوماً أن تكون متميِّزة.

يُفتح باب المدخل مُصدِراً صريراً، وتملأُ سحابة فرح المكان. وخلال لحظة تنتعش الورشة ويغدو هذا المكان ضاجاً بالحيويّة التي تحبّها جوليا حباً جمّاً. وفي هرج ومرج مبهم تمتزج فيه الأحاديث، تُسرع العاملات نحو حجرة الملابس حيث يرتدين فيها السترات قبل أن يتَّجهنَ إلى أماكنهم وهنَّ يثرثرن. تنضمّ جوليا إليهنَّ. تبدو ملامح آغنس متعبة - أصغر أخوتها تنمو أسنانه، ولم تنَم الليل. وفيديريكا تحبس دموعها لأنَّ خطيبها تركها. تهتف آلدا: مرّة أخرى أيضاً؟! سيعود غداً، تطمئنها باولا. تتقاسم النساء هنا ما هو أكثر من مهنة. وبينما تنشغل أيديهنَّ بمعالجة الشعر، يتحدَّثن عن الرجال وعن الحياة والحبّ طوال النهار. هنا يَعرفن جميعهنَّ أن زوج جينا يشرب

الخمر، وأنَّ ابن ألدا على علاقة مع البيوفرا(*)، وأنَّ أليسيا أقامت علاقة عابرة مع زوج رينا السابق ولم تغفر له ذلك أبداً.

تحب جوليا صحبة هؤلاء النسوة وبعضهنَّ يَعرِفْنها منذ كانت طفلة. فقد كادت تولد هنا. ويروق لأمّها أن تحكي كيف فاجأها المخاض حين كانت منهمكة بفرز الخصلات في القاعة الرئيسة - لم تعد تعمل هناك اليوم بسبب ضعف نظرها واضطرت إلى التخلّي عن مكانها لموظفة لديها عيون حادة. ترعرعت جوليا هنا، بين الشعر الذي يجب فرزه، والخصلات التي يجب غسلها، والطلبيات التي يجب إرسالها. تتذكّر أيام العطل وأيام الأربعاء التي أمضتها بين العاملات وهي تنظر إليهنَّ وهنّ يعملن. كانت تحب مراقبة أيديهنَّ وهنَّ منهمكات بنشاط مثل جيش من النمل. كانت تراهن يلقين الشعر على المنادف، تلك الأمشاط الضخمة المربّعة لتسريحه ثم غسله في مغطس مثبت على ركائز - وهو ابتكار ماهر من والدها الذي لم يكن يحبّ أن يتشوّه ظهر موظفاته. وكانت جوليا تستمتع بالطريقة التي تُعَلَّقُ فيها الخصلات على النوافذ لتجفيفها - كأنَّها غنيمة قبيلة هنديّة، سلسلة من فراء الرؤوس المعروضة بشكلٍ غريب.

يراودها أحياناً إحساس بأنّ الزمن توقّف هنا. إنه يتابع جريانه

(*) بيوفرا: لقب ويعني باللغة الإيطالية؛ الأخطبوط. (المترجم)

في الخارج، أمّا بين هذه الجدران، فتشعر أنّها محميّة. إنّه إحساس عذب ومُطَمْئن، وثقة بديمومة غريبة للأشياء.

منذ ما يقارب القرن من الزمن وعائلتها تعيش من **الكاسكاتورا**، تلك العادة الصقليّة العريقة التي تعتمد على الاحتفاظ بالشعر المتساقط أو المقصوص، ليُصْنَعَ منه شعر مستعار أو باروكات. أسَّس جدّ والد جوليا ورشة لانفريدي في عام 1926 وهي آخر ورشة من نوعها في باليرمو. تضمّ نحو عشر عاملات متخصصات يفرزنَ ويغسلنَ ويعالجنَ الخصلات التي تُرْسَل بعد ذلك إلى إيطاليا وإلى جميع أنحاء أوروبا. وحين بلغت جوليا سنّ السادسة عشرة، اختارت أن تترك المدرسة الثانويّة لتنضمَّ إلى والدها في الورشة. كانت طالبة موهوبة بحسب مدرِّسيها، وخاصة أستاذ اللغة الإيطالية الذي حثّها على المتابعة، فهي قادرة على الاستمرار في دراستها والدخول إلى الجامعة. لكن لم يكن وارداً بالنسبة لها تغيير طريقها. فالشعر عند عائلة لانفريدي إضافة إلى أنّه تقليد، هو شغف ينتقل من جيل إلى جيل. والغريب أنَّ أخوات جوليا لم يبدين اهتماماً بالمهنة، وهي الوحيدة من بين بنات لانفريدي التي نذَرَت نفسها لها. فقد تزوَّجت أختها فرنشيسكا وهي صغيرة، ولم تعمل؛ ولديها أربعة أطفال اليوم. أمَّا أديلا أصغر الأخوات فلم تزل في الثانويّة وتُعدّ نفسها للعمل في الموضة أو عروض الأزياء - في أي مهنة إلّا مهنة والديها.

بالنسبة إلى الطلبات الخاصة والألوان التي يصعب العثور عليها، كان لدى **البابا** سرّ: وصفةٌ وَرِثَها عن أبيه وعن جدّه من قبله، تعتمد على مستحضرات طبيعيّة لم يتفوّه باسمها قط. هذه الوصفة نقلها إلى جوليا. وغالباً اصطحبها معه إلى السفينة، إلى مختبره كما يسميه. ومن هناك، يمكن رؤية البحر، ومن الجانب الآخر يمكن رؤية مونت بيليغرينو. وبعد أن يرتدي بيترو سترة بيضاء تجعله شبيهاً بأستاذ الكيمياء، يغلي دلاءً كبيرة لإجراء تعديلاته: يعرف كيف يُزيل ألوان الشعر ويصبغه من جديد بعد ذلك، دون أن ينصل اللون جراء الغسيل. تراقبه جوليا وهو يقوم بذلك لساعات، وهي منتبهة لكلّ حركة من حركاته. يراقب أبوها الشعر كما تراقب **الماما** «معكرونتها». يحرّكه بواسطة ملعقة خشبيّة، ويتركه ليرقد قبل أن يعاود الكرّة بلا كلل ولا ملل. ثمة صبرٌ ودقة وحبٌّ أيضاً في هذا الاعتناء به. ويطيب له أن يقول إنَّ هذا الشعر سيوضَع على رأسٍ ذات يوم ويستحق أكبر قدرٍ من الاحترام. وتبدأ جوليا أحياناً تحلم بالنساء اللواتي سيقتنين الباروكات - لا يميل الرجال هنا إلى وضع الشعر المستعار، فهم أشدُّ زهواً وتعلّقاً بفكرة ثابتة عن رجولتهم.

لسببٍ مجهول تقاوم بعض أنواع الشعر وصفة لانفريدي السرّيّة. ومن الدلاء التي تُغَطَّس فيها، يخرج معظمها بلون أبيض لبني، وهو ما يسمح بصبغها ثانية في الحال، لكن عدداً قليلاً من الشعرات تحتفظ بلونها الأصلي. وتخلق بعض الشعرات المتمردات مشكلة حقيقيّة: فليس معقولاً في الواقع أن يجد زبون شعراً متمرداً في

خصلة ملونة بعناية. وبسبب حدة بصرها، كُلِّفَتْ جوليا بهذه المهمة الدقيقة: عليها أن تفرز الشعر شعرة شعرة، لكي تستخرج منه الشعرات غير المصبوغة. إنَّها مطارَدَة حقيقيّة للمشعوذات تقوم بها كلّ يوم، اصطياد ماهر للطرائد بلا كللٍ أو ملل.

يُخرجها صوت باولا من حلم اليقظة.

تبدين متعبة يا عزيزتي.
قرأتِ أيضاً طوال الليل.

لم تنفِ جوليا. لا يمكن إخفاء شيء عن باولا. المرأة العجوز هي أقدم العاملات في الورشة. الجميع يناديها هنا **النونا**(*). عَرَفَتْ والدَ جوليا وهو طفل؛ يطيب لها أن تروي كيف كانت تعقد له رباط حذائه. ترى كلّ شيء من برج أعوامها الخامسة والسبعين. اهترأت يداها وتجعَّدت بشرتها مثل رَقٍّ مخطوط قديم، لكنَّ نظرتها لم تزل ثاقبة. أصبحت أرملة في سن الخامسة والعشرين وربّت لوحدها أبناءها الأربعة رافضة الزواج مرّة أخرى بقيّة حياتها. وحين يسألونها عن السبب تُجيب بأنَّها تحرصُ على حريتها: **المرأة المتزوجة يترتّب عليها أعباء**، كما تقول. **افعلي ما تشائين يا عزيزتي لكن إياك أن تتزوجي**، تردِّد على مسامع جوليا. تتحدّث بعفويّة عن خطوبتها من

(*) نونا: جدّة باللغة الإيطالية. (المترجم)

رجل اختارَه لها أبوها. كانت عائلةُ زوجِ المستقبل تُدير بيارة ليمون. واضطرت **النونا** للعمل في قطافه يوم زفافها بالذات. في الأرياف، ليس ثمة مجال للتوقّف. تتذكّر رائحة الليمون التي كانت تفوح دوماً من يدي وثياب زوجها. حين مات بعد بضع سنوات بمرضٍ ذات الرئة، تاركاً إياها وحيدة مع أولادها الأربعة، اضطرت للسفر إلى المدينة بحثاً عن عمل. والتقت بجَدِّ جوليا الذي وظّفها في الورشة. ولم تزل تعمل فيها منذ خمسة عقود.

هتفت آلدا: لن تجدين زوجاً في الكتب!

تذمرت **النونا**: دعيها وشأنها.

لا تبحث جوليا عن زوج. فهي لا تتردّد على المقاهي والحانات مع أنَّها مخصَّصة لمن هم في سنها. اعتادت **الماما** أن تقول: **ابنتي منزوية قليلاً**. تُفَضِّلُ جوليا صَمْتَ المكتبة العامة المُطبِق على صخب المراقص الليلية. تذهب إليها كلّ يوم وقت الغداء. قارئة نهمة، تحبّ أجواء القاعات الكبيرة المفروشة بالكتب التي يكدّرها فقط حفيف الصفحات. يبدو لها أنَّ ثمة شيئاً دينياً فيها، خشوعٌ شبهُ صوفي يعجبها. حين تقرأ جوليا، لا تشعر بمرور الوقت. وهي طفلة، كانت تلتهم روايات إيميليو سالغاري وهي جالسة عند أقدام العاملات. وفيما بعد اكتشفَت الشِّعر. تحب كابروني أكثر من أنغاريتي، وتحبّ نثر مورافيا وعلى الأخص كلمات سيزار بافيس، كاتبها المفضّل. تقول في سرّها أنَّ بمقدورها أن تُمضي حياتها مع هذه الصحبة

وحدها. وحتى تنسى أن تتناول طعامها. ولا يندر رؤيتها عائدة إلى عملها من استراحة الغداء ومعدتها خاوية. هكذا: تلتهم جوليا الكتب كما يلتهم آخرون **الكانولي**(*).

حين عادت إلى المشغل في ذلك العصر، خَيَّمَ صمتٌ غير عادي على الصالة الرئيسة. وفور دخولها، التفتتْ جميع الأنظار نحوها.

عزيزتي، قالت لها **النونا** بصوت لم تألفه، اتصلتْ بكِ أمّكِ منذ قليل.

حدث شيء ما **للبابا**.

(*) الكانولي: عبارة عن معجنات مقلية ومحشوة بجبن الريكوتا. يعود أصلها إلى مدينة باليرمو الصقلية حيث كانت تُقدَّم كحلوى في الكرنفالات. (المترجم)

ســـارة

مونتريال، كنـدا.

جرس المنبّه يرنّ والعدّ العكسي يبدأ. تُصارع سارة الزمن منذ لحظة استيقاظها حتى لحظة نومها. وما إن تفتح عينيها، حتى يشتغل دماغها مثل معالج حاسوب.

تستيقظ كل صباح في الساعة الخامسة. ولا يعود لديها وقت للنوم، فكلّ ثانية محسوبة. نهارها مُقاس زمنيّاً وبالمليمتر مثل تلك الأوراق التي تشتريها بداية العام الدراسي من أجل دروس الحساب للأطفال. مضى زمن اللامبالاة، زمن ما قبل العمل والأمومة والمسؤوليات. كان يكفي آنذاك اتصال هاتفي ليغيِّر مجرى نهارها: ما رأيكِ أن نفعل...؟ أن ننطلق نحو...؟ أن نذهب إلى...؟ أمّا اليوم، فكلّ شيء مخطّط ومنظّم ومتوقّع. لم يعُد ثمة ارتجال، ثمة دورٌ تحفظه وتمثّله وتكرِّره كلّ يوم وكلّ أسبوع وكلّ شهر وكلّ عام.

ربة منزل، موظفة إداريّة من الدرجة الأولى، فتاة عاملة، فتاة عصرية، امرأة حديدية، الكثير من الملصقات التي تَضعها المجلات النسائيّة على ظهر النساء اللواتي يشبِهنَها، كأنها حقائب تُثقِل أكتافهنَّ.

تنهض سارة، تستحمّ وترتدي ملابسها. حركاتها دقيقة وفعّالة ومنسجمة مثل سيمفونيّة عسكريّة. تنزل إلى المطبخ وتُعِدُّ مائدة الإفطار. ودوماً بالإيقاع ذاته: حليب/ زبدية/ عصير برتقال/ شوكولا/ شطائر لهانا ولسيمون/ حبوب لإتيان/ قهوة لها. ستذهب بعد ذلك لإيقاظ الأطفال، هانا أولاً، ثم التوأم. جَهَّزَ لهم رون ملابسهم. وليس عليهم سوى غسل وجوههم وارتدائها بينما تملأ هانا العلب بالوجبات، وهي مهمّة تنجزها بالسرعة التي تسير فيها سيارة سارة في شوارع المدينة، لتنقلهم إلى مدارسهم، سيمون وإيثان إلى الابتدائية، وهانا إلى الإعداديّة.

بعد القبلات، **أنت لم تنس شيئاً، أصلح هندامك، انتبه لامتحان الرياضيات، توقفوا عن الضجيج في الخلف، لا، ستذهب إلى الصالة الرياضيّة، وأخيراً عطلة نهاية الأسبوع التقليديّة القادمة ستقضونها عند أبيكم**، وتتّجه سارة إلى مكتبها.

في الساعة الثامنة وعشرين دقيقة بالضبط تركن سيارتها في المرأب، أمام شاخصة تحمل اسمها: «**سارة كوهن، جونسون ولوكوود**» - هذه اللوحة التي تتأمّلها كلّ صباح بفخرٍ تشير إلى أكثر

من مكان سيارتها؛ إنّها عنوانٌ ورتبةٌ ومكانتها في هذا العالم. إنها إنجازٌ، وثمرة عمل حياتها. إنَّها نجاحها، ومملكتها.

في البهو، يُحييها البواب، ثم عامل المقسم، ودوماً بالإيقاع ذاته. هنا الجميع يقدّرونها. تدخل سارة المصعد، فتضغط على زرّ الطابق الثامن، تجتاز الرواق بخطى سريعة نحو مكتبها. لا يوجد الكثير من الناس، وغالباً ما تكون أول الواصلين وآخر المغادرين. هذا هو الثمن الذي تدفعه لتصنع مهنة، وهذا هو الثمن لتصبح سارة كوهن، المساهِمَة بنصف الأسهم في مكتب **جونسون ولوكوود** المرموق، وهو من أهم المكاتب في المدينة. وإذ يوجد عدد كبير من النساء المعاونات فإنَّ سارة هي أول مَن رُقِّيَتْ لتصبح شريكة في هذا المكتب الذكوري المشهور. معظم صديقاتها في مدرسة المحاماة اصطدمنَ بالسقف الزجاجي(*). بعضهنَّ تخلَّين عن المهنة وانتقلنَ إلى مهنة أخرى رغم الدراسة المديدة والشاقة التي اجتزنها. أمّا هي فلا. لا، ليس سارة كوهن. لقد حطَّمَت السقف وفجَّرته بضربات قويّة من ساعات العمل الإضافيّة، من قضاء أيام العطل في المكتب، من سهر الليالي في التحضير لمرافعاتها. تتذكّر أول مرّة دخلت فيها القاعة الرخاميّة الفسيحة منذ عشر سنوات. جاءت لإجراء مقابلة

(*) السقف الزجاجي: مفهوم حديث العهد وُلد في الولايات المتحدة ويشير إلى الصعوبات غير المرئية التي تواجه المرأة في الوصول إلى المناصب القيادية والعليا والحساسة في مختلف الميادين رغم أن القوانين والأنظمة تسمح لها بذلك. (المترجم)

التوظيف، فوجدت نفسها أمام ثمانية رجال، بينهم جونسون شخصيّاً، المساهِم المؤسِّس، الإله بذاته، فقد خرج من مكتبه لهذه المناسبة، ونزل إلى قاعة الاجتماعات. لم ينبس ببنت شفة، وحدَّقَ فيها بنظرة قاسية، وهو يقرأ بالتفصيل كلّ سطر من سيرتها الذاتيّة دون أن يبدر منه أي تعليق. شعرَت سارة بالاضطراب لكنَّها لم تُظْهِر شيئاً منه، فقد كانت ماهرة في ارتداء القناع، وهو سلوك اعتادت على ممارسته منذ زمن طويل. حين خرجَت، شعرَت بالإحباط دون سبب، فجونسون لم يُبْدِ أي اهتمام حيالها ولم يطرح عليها أي سؤال. وكلاعبٍ محنّك في خلال لعبة بوكر، أظهر وجهاً هادئاً خلال المقابلة، وقال «إلى اللقاء» بنبرة قاسية يُسْتَشَفُّ منها شيء من الأمل في المستقبل. كانت سارة تعرف أنَّه يوجد عدد من المرشحين لمنصب المعاون. وقد جاءتْ من مكتبٍ آخر أقل شأناً وأقل هيبة، لم يكن يربح شيئاً. أمّا الآخرون فكانت لديهم تجربة أكبر، وهم أكثر عدوانيّة، وربما أوفر حظاً أيضاً.

وبالنتيجة عَلِمَت أنَّ جونسون اختارها شخصيّاً، وعَيَّنَها من بين جميع المرشحين، معارضاً رأي غاري كورست - عليها أن تعتاد على ذلك، لأنَّ غاري كورست لم يكن يحبّها، أو كان يحبّها حبّاً جماً، ولعلّه كان غيوراً، أو يشتهيها، لا يهم، فهو سيُظْهِر عداءه في كلّ الظروف وبلا مبرِّر وعلى نحوٍ قاطع. كانت سارة تعرف هؤلاء الرجال الطموحين الذين يكرهون النساء ويشعرون بخطرهنَّ، فتحاذيهم ولا تُعِرهم اهتمامها. تشقّ طريقها تاركةً إيَّاهم على

الجانبين. عند **جونسون ولوكوود**، ارتقتْ الدرجات بسرعةِ حصانٍ يعدو، وخلقتْ لنفسها سمعة قويّة في ساحة القضاء. كانت المحكمة حلبتها ومملكتها وميدانها. حين تدخلها، تغدو مقاتلة ومحاربة، شرسة ولا ترحم. وحين تترافع، تختلف نبرتها قليلاً، وتصبح أكثر جديّة ووقاراً. تُعَبِّرُ عن نفسها بجُملٍ قصيرة، حادة وقاطعة مثل اللكمات. تتركُ خصومها يخرجون من الحلبة مُسْتَشْعِرَةً أيّ هفوة وأقلّ ضعف في حججهم. تحفظ ملفّاتها عن ظهر قلب. لا تدَع للاضطراب منفذاً إليها ولا تفقد البتة رباطة جأشها. ومنذ بدَأت ممارسة مهنتها في هذا المكتب المتواضع في شارع وينستون الذي شَغَّلَها بعد حصولها على دبلوم المحاماة، رَبِحَت معظم القضايا. كانت موضع إعجاب ومرهوبة. وهي في سن الأربعين تقريباً، أصبحت نموذجاً للنجاح بالنسبة إلى المحامين من جيلها.

سَرَت شائعة في المكتب بأنَّها الشريك الإداري المقبل. فجونسون أصبح مسنّاً، ولا بد من إيجاد خَلَفٍ له. وكلّ المساهمين كانوا يطمحون إلى المنصب. وصاروا يرون أنفسهم الآن خلفاء مكان الخليفة. وبات هذا الموقع مقدّساً، قمّة إيفرست في عالم المحاماة. تمتَّعَت سارة بكلّ الصفات لتَشْغَلَه: سيرة مثاليّة، إرادة قويّة لا تكلّ ولا تملّ، قدرة على العمل تتحدى أيّة منافسة - نوع من أنواع الشَّرَه يدفعها دوماً لتظلّ تتحرك. كانت رياضية، متسلقة لجبال الألب، تثبُ بعد كلّ قمة إلى القمة التي تليها. كانت ترى حياتها على هذا النحو، كتسلّقٍ مديد، وتتساءل أحياناً عمّا سيحدث حين

ستبلغ القمة. كانت تنتظر ذلك اليوم دون أن تأمل بقدومه حقاً.

بالتأكيد، تطلَّبَت منها مهنتها تضحيات. كلّفتها الكثير من سهر الليالي، والزواج مرتين. أجل، غالباً ما ردَّدت سارة أنَّ الرجال يحبون النساء اللاتي لا يجعلنَ منهم ظلّاً، وقبلت أيضاً أن يكونا محاميين معاً، وذلك في المرتين. قرَأت ذات يوم في مجلّة -هي التي لم تكن تقرأ مجلات البتة تقريباً- إحصاءً صادماً عن مدة الحياة الزوجيّة للمحامين. قرأته لزوجها آنذاك فضحكا - قبل أن ينفصلا بعد عام.

وبسبب انهماكها في العمل بالمكتب، اضطرّت سارة أن ترفض تقاسُم الكثير من اللحظات مع أبنائها. الابتعاد عن الهموم المدرسيّة واحتفالات رأس السنة وعروض الرقص ووجبات أعياد الميلاد والعطل الصيفيّة، كان يُرهقها بما يفوق رغبتها بالتسليم به. فهي تعرف أنَّ هذه اللحظات لا تُعَوَّض، وهذا الخاطر يحزنها. كانت تعرف حقّ المعرفة هذا الشعور بالذنب لدى الأمهات العاملات، وقد أرهقَها هذا الشعور منذ ولادة هانا، منذ ذلك اليوم الرهيب الذي اضطُرَّت لتركها فيه، وكان عمرها آنذاك خمسة أيام، بين ذراعي مربية لكي تبتّ في أمر حالة مستعجلة في المكتب الذي تعمل عنده. وسرعان ما أدركتْ أنَّه ليس ثمة مكان في المجال الذي تتقدّم فيه لمماطلات أُمٍّ محزونة. أخْفَت دموعها تحت طبقة ثخينة من مساحيق التجميل قبل أن تذهب إلى العمل. أحسّت بالتمزّق والحيرة ولكنها لم تستطع أن تثقَ بأحد. كانت تحسدُ آنذاك خفّة زوجها، تلك الخفة

الساحرة للرجال، فهذا الشعور يبدو غائباً لديه على نحو غريب. يعبرون أبواب منازلهم بسهولة وقحة. يغادرونها في الصباح وهم لا يحملون سوى ملفاتهم، أمّا هي فتحمل معها في كلّ مكان عبء شعورها بالإثم، مثلما تحمل سلحفاة دِرعها الثقيل. حاوَلَت في البداية أن تقاوم هذا الشعور، أن تُبعِده وترفضه، لكنَّها لم تفلح في ذلك. وانتهَت إلى بناء مكانٍ له في حياتها. أصبح الشعور بالذنب صديقها القديم الذي يفرض نفسه في كلّ مكان دون أن يُدعى إليه. إنَّه لوحة إعلان في حقلٍ، ثؤلولٌ وسط الوجه، قبيحٌ ولا نفع له، لكنَّه هكذا: موجودٌ هناك. ولا بد من التعايش معه.

لم تكن سارة تُظْهِرُ شيئاً أمام معاونيها وشركائها. اتَّبعَت قاعدة عدم التحدث أبداً عن أبنائها. لا تأتي على ذكرهم ولا تحتفظ بصورٍ لهم في مكتبها. وحين تضطرّ لمغادرة عملها من أجل مراجعة طبيب أطفال أو تلبيةً لاستدعاءٍ من المدرسة لا يسعها التخلّف عنه، كانت تفضّل القول بأنَّ لديها **موعداً خارجياً**. آثرَت أن يروها تغادر باكراً **لتحتسي كأساً** فذلك أفضل من سرد مشكلات المربية. كما آثرَت أن تكذب وتختلق وتراوغ وكل شيء، على أن تعترف أنَّ لديها أطفالاً، وبعبارات أخرى: أن تعترف بالسلاسل والقيود والالتزامات. إنَّها مكابح تحدُّ من حريتكم في التصرف وتطوير مهنتكم. تتذكر سارة تلك المرأة في المكتب القديم الذي تدربت فيه، كانت قد رُقِّيَتْ للتو إلى شريكة، وما إن أعلنت عن حملها حتى أُعيدت إلى منصب معاونة. كان ذلك عنفاً خفيّاً، غير مرئي، عنفاً مألوفاً لا يستنكره

أحد. استخلصت سارة منه درساً لنفسها. وفي المرتين اللتين حَمَلَت فيهما، لم تقل شيئاً لرئيسها. والمدهش أنَّ بطنها بقي مسطحاً لوقت طويل: حتى الشهر السابع تقريباً، لم يكن حبلها ظاهراً، حتى حين حملَت بالتوأم، كما لو أنَّ أطفالها أحسّوا في رحمها أنَّه من الأفضل لهم البقاء مختبئين. كان ذلك سرّهم الصغير ونوع من الميثاق الضمني بينهم. حصلَت سارة على أقصر إجازة أمومة ممكنة، وعادت إلى مكتبها بعد أسبوعين من الولادة القيصريّة، بقوام لا تشوبه شائبة، وبسحنةٍ متعبة لكنَّها مطليّة بمساحيق التجميل بعناية، وبابتسامة عريضة. في الصباح، وقبل أن تركن سيارتها عند المكتب، كانت تتوقف في مرأب السوبر ماركت المجاور لتُخْرِج كرسيي الطفلين من المقعد الخلفي وتضعهما في صندوق السيارة لإخفائهما. كان زملاؤها يعرفون بالتأكيد أن لديها أطفال، لكنَّها حرصَت على ألّا تذكرهم أبداً. يحقّ لأي سكرتيرة أن تتحدث عن طعام صغارها ونمو أسنانهم، أمَّا الشريكة فلا.

هكذا بنت سارة جداراً كتيماً مُحكَماً بين حياتها المهنيّة وحياتها العائليّة، ولكل حياة منهما مجراها، مثل خطين مستقيمين متوازيين لا يلتقيان. كان جداراً هشّاً ومزعزعاً يتصدّع أحياناً، وقد ينهار يوماً. لا يهم. فقد كان يروق لها أن تفكر بأنَّ أبناءها سيفخرون بما بَنَته وبما أصبح عليه حالها. أرغمت نفسها على تعويض عدد اللحظات التي تمضيها معهم بنوعيّتها. كانت سارة في حياتها الخاصة أُمّاً حنونة وودودة. أمّا في باقي الأوقات، فكان يقوم مقامها

«**رون السحري**»، كما سمّاه الأطفال أنفسهم. وراح يضحك من هذه التسمية التي لازَمَته كَلَقَبٍ تقريباً.

وظَّفَت سارة رون بعد ولادة التوأم ببضعة أشهر. فقد اختلفت مع ليندا، مربيتها السابقة التي، علاوة على تأخرها المستمر وإهمالها في العمل، ارتكبَت خطأً جسيماً تسببَ في طردها مباشرة: عادَت سارة إلى المنزل فجأة لتأخذ ملفاً نسيته، فوجدَت إيثان، وكان عمره آنذاك تسعة أشهر، وحيداً في سريره والمنزل فارغ. عادت ليندا من السوق بعد ساعة ومعها سيمون وكأنَّ شيئاً لم يكن. وحين ضُبِطَت متلبِّسة، برَّرَت وهي تشرح أنها تُنَزِّهُ أحد التوأمين بالتناوب كلّ يوم، مدَّعيةً أنَّه من الصعب جداً إخراجهما معاً. طردتها سارة في اليوم ذاته. تَذَرَّعَت في المكتب بأنَّ لديها التهاباً في العصب الوركي، واختبَرَت في الأيام التالية عدداً من مربيات الأطفال، وكان رون من بينهنَّ. فوجئتْ أن تجد رجلاً يطمح إلى هذه الوظيفة، واستبعَدَت في البداية ترشيحه - فقد قرأت الكثير من الأشياء في الصحف... علاوة على ذلك، لم يكن زوجاها على دراية بفنّ تغيير الحفاض ولا إعطاء الحليب، فشَكَّت في أن يستطيعَ رجلٌ إتقان هذه المهمات. تذكَّرَت عندئذٍ مقابلة توظيفها عند **جونسون ولوكوود**، وهو ما أجبرها على الإنجاز، باعتبارها امرأة، لكي تفرض نفسها في هذا الوسط. وفي النهاية أعادت النظر في موقفها. فمن حقّ رون أن يحصل على فرصته أسوة بالآخرين. لم يكن هنالك مأخذ على سيرته الذاتية، ولديه مؤهلات قويّة. كان هو نفسه أباً لطفلين، ويسكن في حيّ مجاور. ومن

الواضح أنَّه كان يتمتع بكلّ المؤهلات المطلوبة لهذه الوظيفة. وضعته سارة تحت الاختبار لمدة أسبوعين، أظهرَ رون خلالهما مهارته: كان يلاعبُ الطفلين لساعات، ويطبخ بإتقان، ويتسوّق، ويرتب المنزل، ويغسل، ويتحمّل كلّ ما يمكن أن تفرضه الحياة اليوميّة. وقد لاقى قبولاً لدى الأطفال، لدى التوأم كما لدى هانا، وكانت آنذاك في سنّ الخامسة. كانت سارة قد انفصلت للتو عن زوجها الثاني، والد الصبيين، وفكّرَت أنَّ شخصية ذكوريّة ستحظى بقيمة في عائلة أحاديّة الأبوين كعائلتها. ولعلّها طمأنَت نفسها لاشعوريّاً أيضاً بأنَّها إن وظَّفَت رجلاً فلن يحلّ مكانها أحد كأم. لذلك أصبح رون هو **رون السحري**، الضروري لحياتها وحياة أبنائها.

حين كانت سارة تتمرّى في المرآة، كانت ترى امرأة في سن الأربعين نجحت في كلّ شيء: لديها ثلاثة أبناء وسيمين، ومنزلٌ مرتبٌ بعناية في حيّ راقٍ، ومهنةٌ يحسدها عليها الكثيرون. كانت على صورة أولئك النساء اللاتي نراهن في المجلّات، مبتسمة وكاملة. أمّا جرحها فلم يكن مرئيّاً، كان خفياً، لا يمكن اكتشافه تحت مساحيق التجميل المتقنة وأثوابها المقتناة من عند الخياطين المشهورين.

لكنَّها كانت هناك.

مثل آلاف النساء في هذا البلد، كانت سارة كوهن مشطورة إلى قسمين. كانت قنبلة جاهزة للانفجار.

سميتا

قرية بادلابور، ولاية أوتار براديش، الهند.

تعالي إلى هنا.
اغتسلي.
لا تتباطئي.

هذا اليوم. يجب ألّا تتأخري.

في الفناء خلف الكوخ، تساعدُ سميتا لوليتا على الاستحمام. تستسلم الفتاة وتُطيع ولا تعترض حتى حين يسيل الماء في عينيها. تُمَشّطُ سميتا شعر ابنتها المنسدل حتى خصرها. لم تقصّه لها قط، فهذا هو التقليد هنا، تحتفظ النسوة بشعرهنَّ لزمن طويل منذ الولادة، وأحياناً طوال حياتهنَّ. تُقَسِّمُ الشعرَ إلى ثلاث خصلات وتجدله بيدٍ خبيرة لتصنع منه ضفيرة. تُنَاولها بعد ذلك الساري(*) الذي خاطته

(*) الساري: ثوب ترتديه الهنديات. (المترجم)

لأجلها طيلة ليالٍ. قدّمَت لها إحدى جاراتها القماش. ليس لديها المال لتشتري الزيّ الذي يرتديه التلاميذ هنا، لكن لا يهم. تقول في سرّها، ستكون ابنتها جميلة عند دخولها إلى المدرسة.

نهضَت فجراً لتحضّر لها وجبتها - لا يوجد مطعم في المدرسة، ويجب على كلّ طفل أن يجلب معه وجبة غذائه. طبخت أرزاً أضافَت له القليل من الكاري الذي تحتفظ به للمناسبات العظيمة. تأملُ أن تأكل لاليتا بشهيّة في يومها الأول في المدرسة. يحتاج تعلم القراءة والكتابة إلى طاقة. وضعَت الوجبة في علبة أعدَّتها على عجل - علبة من الحديد نظَّفتها بعناية وزينتها. لا تريدُ أن تشعرَ لاليتا بالخجل أمام الآخرين. ستتعلم القراءة، تماماً مثلهم. مثل أطفال طبقة الجات.

ضعي المسحوق.
واهتمي بالمعبد.
بسرعة.

في غرفة الكوخ الوحيدة التي تُستخدم في آنٍ معاً كمطبخ وحجرة ومعبَد، تكفَّلتْ لاليتا بتنظيف المعبد الصغير المخصّص للآلهة. تُشعل شمعة وتضعها قرب الصور الورعة. وهي مَن تقرع الجرس عند الابتهالات. تتلو سميتا وابنتها صلاةً لفيشنو إله الحياة والخلق، والحامي لجميع البشر. حين يختلُّ نظام الكون، يتجسّد

وينزل لمعالجته، متخذاً بالتناوب شكل سمكة، سلحفاة، خنزير برّي، رجل برأس أسد، وحتى شكل إنسان. تحبُّ لاليتا الجلوس قرب المعبَد الصغير في المساء، بعد الطعام، والاستماع إلى أمّها وهي تروي لها حكاية التجسّدات العشرة لفيشنو. فعند تجسّده بشراً لأول مرّة، دافع عن طبقة البرهميين(*) ضد الكشاتر(**)، وملأ خمس بحيرات من دمائهم. ترتعد لاليتا دوماً عند استحضار هذه القصة. وتحتاط في أثناء لعبها لئلا تسحق أيّ نملة أو عنكبوت، فمَن يدري، قد يكون فيشنو موجوداً، قريباً جداً، متجسّداً في إحدى هذه المخلوقات البائسة... إلهٌ يمشي على أطراف أنامله... تروق لها الفكرة وتُرعبها في الوقت ذاته. يحب ناغاراجان أيضاً أن يصغي إلى سميتا في المساء قرب المعبد. فزوجته تقصّ حكايات رائعة مع أنَّها لا تعرف القراءة.

هذا الصباح، لا وقت للحكايات. انطلق ناغاراجان باكراً كعادته، منذ انبلاج الفجر. إنَّه صياد جرذان، كأبيه من قبله. يعمل في حقول الجات. إنَّه تقليد عائلي قديم، مهارة تنتقل بالوراثة: فن اصطياد الجرذان بيدين عاريتين. تلتهمُ الجرذانُ المحاصيل وتجعلُ الأرض هشّة بحفرها للسراديب فيها. اعتاد ناغاراجان أن يتعرَّف على هذه الحفر الصغيرة في الأرض، وأن يميِّزها. كان والده يقول،

(*) البرهميون: طبقة تضم القساوسة والعلماء. (المترجم)

(**) الكشاتر: طبقة تضم الحكام والجنود والإداريين. (المترجم)

لا بد من الانتباه والصبر. لا تخَف. في البداية ستعضّك. لكنَّك ستتعلم. يتذكّر صيده الأول وهو في سن الثامنة حين دسَّ يده في الجحر. اخترق ألمٌ واخزٌ بشرته، فقد عضَّ الجرذ المنطقة الطريّة بين الإبهام والسبابة، حيث يكون الجلد أرقّ ما يمكن. صرخ ناغاراجان وسحب يده المدمّاة. ضحك والده. أنتَ تتصرّف على نحو سيئ. يجب أن تكون أسرع، وأن تُفاجئه. أَعِدْ المحاولة. شَعَرَ ناغاراجان بالخوف، وحبسَ دموعه. أَعِدْ المحاولة! كرَّرَ محاولاته ست مرّات، ست عضات، قبل أن يُخْرِجَ الجرذ الكبير من مخبئه. أمسك أبوه الحيوان من ذيله وحطّم رأسه بحجر قبل أن يُعيده ثانية لابنه. قال ببساطة: ها هو. أمسَك ناغاراجان الجُرذ الميت كمَن يحصل على غنيمة وحمَله إلى المنزل.

ضمّدت أمَّه أولاً يده. ثم شَوَت الجرذ. أكلاه سويّة على العشاء.

المنبوذون مثل ناغاراجان لا يتقاضون أجراً، ويحقّ لهم فقط الاحتفاظ بما يصطادونه. إنَّه أحد أشكال الامتياز. فالجرذان كالحقول هي ملك طبقة الجات، وكلّ ما يوجد فوقها وتحتها.

يقول البعض، إنَّ الجرذ وهو مشويّ ليس سيئاً. يشبه الدجاج. إنَّه دجاجة الفقير، دجاجُ الداليت. اللحم الوحيد المُتاح لهم. يروي ناغاراجان أنَّ والده كان يأكل جرذاناً كاملة، بجلدها ووبرها، ولا

يترك منها إلّا الذيل، العسير على الهضم. كان يُثَبِّتُ الحيوان على عصا ويشويه فوق النار، قبل أن يلتهمه بكامله. تضحك لاليتا حين يروي هذه الحكاية. أمّا سميتا فتسلخُ الجلد. وفي المساء، يأكلون جرذان النهار مع الرز التي تحتفظ سميتا بمرقها لتستخدمه كصلصة. أحياناً توجد أيضاً بقايا طعام قدّمتها العائلات التي تُفرغ لها مراحيضها، تجلبها وتتقاسمها مع الجيران.

لا تنسي البندي(*).

تفتش لاليتا بين أمتعتها، وتُخْرِج منها علبة ورنيش صغيرة، وجدَتها ذات يوم وهي تلعب على طرف الطريق - لم تتجرأ أن تقول لأمها أنَّها خبأتها بعد أن سقطت من حقيبة إحدى العابرات. كانت الزجاجة قد تدحرَجَت إلى حفرة، فالتقطتها الطفلة، وضمَّتها مثل كنز لإخفائها. عادت مع غنيمتها في المساء ذاته مدَّعيةً أنَّها وجدتها، يغمرها شعورٌ بالفرح وفي الوقت ذاته شعور بالخجل. ماذا لو عرف الإله فيشنو...

(*) البندي: كلمة مشتقة من السنسكريتيّة وتعني القطرة. ترمز تقليديّاً إلى العين الصوفيّة الثالثة للشخص وعلاقته بالمبدأ الكوني للخلق والوعي والحظ الجيد والاحتفال. ويُقال إن مركز جبين الإنسان هو أحد أهم نقاط الضغط على جسد الإنسان. لذلك يوضع البندي لتركيز اهتمامنا على هذه النقطة بالذات. (المترجم)

تأخُذ سميتا الزجاجة من يدي ابنتها، وترسم على جبينها دائرة حمراء قرمزيّة. يجب أن تكون الدائرة كاملة، إنَّها تقنيّة دقيقة وتتطلب شيئاً من التمرين. تضع الورنيش بهدوء بطرف إصبعها وتثبته بالمسحوق. البندي، «العين الثالثة»، كما يسمونها هنا، تحفظ الطاقة وتزيد التركيز. وستحتاجها لاليتا اليوم، تقول أمّها في سرّها. تتأمل الدائرة الصغيرة المتقنة على جبين الطفلة وتبتسم. لاليتا جميلة. لها ملامح ناعمة وعينان سوداوان، وفمها مرسوم كاستدارة زهرة. إنَّها جميلة في ثوب الساري الأخضر. تشعر سميتا بالفخر أمام ابنتها المرتدية الزيّ المدرسي. قد تأكل الجرذ لكنَّها ستتعلم القراءة، تقول في سرّها وهي تمسك يدها وتسحبها نحو الطريق العام. ستساعدها على اجتيازه، فهنا تتوافد الشاحنات منذ الصباح تسير بسرعة، وليس ثمة شاخصات مروريّة ولا معابر مخصَّصة للمشاة.

وبينما هما تتقدّمان، ترفع لاليتا عينيها نحو أمِّها وهي قلقة: ليست الشاحنات هنَّ ما يُرْعبنَها، وإنَّما هذا العالم الجديد، المجهول من أهلها، الذي يترتّب عليها أن تدخله وحيدة. تشعر سميتا بنظرة ابنتها المتوسِّلة؛ كان من السهل أن تعود أدراجها، وتحمل سلّة الأسل وتصحبها معها... لكن لا، لن ترى لاليتا تتقيأ في الحفرة. ستذهب ابنتها إلى المدرسة وتتعلم القراءة والكتابة والحساب.

اجتهدي.

كوني منضبطة.
أصغي إلى المعلم.

تبدو الصغيرة تائهة فجأة، وغضّة إلى حدٍّ أنَّ سميتا رغبت باحتضانها وألّا تتركها ثانية أبداً. عليها أن تقاوم هذه الحماسة وأن تتمالك نفسها. قال المعلم «موافق» حين ذهب ناغاراجان لرؤيته. تَأَمَّلَ العلبة التي دسّت فيها سميتا كلّ مدخراتهم - قطعٌ نقديّة وفروها بعناية خلال أشهر لهذا الغرض. أخذها وقال «موافق». تعرف سميتا أنّ كلّ شيء يسير على هذا النحو. النقود هي قوّة إقناع هنا. عاد ناغاراجان ليُخبر زوجته وابتهجوا.

تعبران الطريق، وفجأة، هناك، حانت الآن لحظة إفلات يد ابنتها على الطرف الآخر من الطريق. تودّ سميتا أن تقول الكثير من الأشياء: افرحي، لن تعيشي حياتي، ستكونين بصحّة جيدة، لن تَسعلي مثلي، ستعيشين حياةً أفضل، وزمناً أطول، وستكونين محترمة. لن تنبعث منكِ هذه الرائحة الكريهة، ولن تفوحي بهذا العطر الدائم واللعين، ستكونين أبية. لن يرمي أحدٌ لكِ ببقايا الطعام مثل كلب. لن تُطَأطئي أبداً رأسك، ولن تُخفضي بصرك. ودّت سميتا لو تقول لها كلّ ذلك. لكنَّها لا تعرف كيف تُعَبِّر وكيف تُخبر ابنتها بآمالها وأحلامها المجنونة، وبهذه الفراشة التي تخفق في البطن.

عندئذٍ انحنت فوقها وقالت لها ببساطة: اذهبي.

جوليا

باليرمو، صقلية.

تستيقظ جوليا مذعورة.

حلمتْ بوالدها هذه الليلة. كانت تحبّ مرافقته في جولاته. في الصباح الباكر، كانا يمتطيان معاً دراجته الفيسبا، ولم تكن تصعد في الخلف، وإنَّما في الأمام، على ركبتَي والدها. وأكثر ما كانت تحبّه، مداعبة الريح لشعرها وهذا الإحساس بالنشوة اللانهائيّة والحريّة الذي تُحْدِثُهُ السرعة. لم تكن تشعر بالخوف وذراعا والدها تطوِّقانها، فلا يمكن لشيء أن يحصل لها. تصرخُ في المنحدرات بسبب المتعة والإثارة. تراقبُ الشمس وهي تشرق على شواطئ صقلية، والنشاط الوليد في الضواحي، والحياة التي تدبُّ وتنتعش.

وأكثر من أيّ شيء، كانت تحبُّ أن تقرع الأبواب. صباح

الخير، نحن هنا من أجل **خصلات الشعر**، تعلن بفخر. كانت النسوة يقدِّمنَ لها أحياناً حلوى أو صورة وهنَّ يناولنها أكياس الشعر. كانت جوليا تحصل على الغنيمة بزهوٍ وتناولها إلى **البابا**. فيُخْرِجُ من حقيبته ميزاناً صغيراً وَرِثَه أباً عن جد يحمله معه في كلّ مكان. يزنُ الخصلات ليقدِّر قيمتها، ويعطي المرأة بضع قطع نقديّة. كان الشعر قديماً يُقايَضُ بأعواد الثقاب، لكن مع انتشار الولاعات انحسرت تجارتهم. والآن صاروا يدفعون ثمنه نقداً.

وغالباً ما كان والدها يتذكر ضاحكاً المسنات المتعبات اللاتي لا يقوين على مغادرة غرفهنَّ، فيدلين سلة بطرف حبلٍ فيها شعرهنَّ. يحييهنَّ بإيماءة، يأخذ الخصلات ويضع مكانها النقود في السلّة التي تصعد من جديد بالطريقة ذاتها.

تتذكّر جوليا من هذا: ضحكة أبيها حين كان يروي لها.

ثم ينطلقان من جديد سويّةً نحو منازل أخرى. وداعاً! عند مصففي الشعر، كانت الغنيمة أكثر أهميّة، وكانت جوليا تحبّ سيماء والدها حين يتلقّى ضفيرة شعر طويلة نادرة وثمينة. يزنها، يقيسها، ويَجُسّ خامتها وكثافتها. يدفع ويشكر ويغادر. كان يجب القيام بذلك بسرعة، فورشة لانفريدي تعتمد في باليرمو وحدها على مائة مورد. وإذا أسرعا، سيعودان عند الغداء.

وفي لحظة أخرى أيضاً، ثمة صورة تحضر. جوليا في سن التاسعة على دراجة الفيسبا.

الثواني القليلة التالية مشوّشة وغامضة، كأنّ الواقع يجهد ليسيطر، ويختلط بالحلم الذي انتهى للتو.

هذا صحيح إذاً. تعرّضَ **البابا** لحادث بالأمس، في أثناء جولته. ولسببٍ غير واضح، انحرفت دراجة الفيسبا عن الطريق. مع أنَّه يعرف هذا الدرب، فقد سبق أن سلكه مئات المرّات. لا بد أنَّ حيواناً اعترضه، يقول رجال الإطفاء، إلّا إذا كان يعاني توعكاً. لا أحد يعرف. إنَّه بين الحياة والموت الآن، في مشفى فرانسيسكو سافيريو. يرفض الأطباء إبداء رأيهم. قالوا **للماما** يجب أن تستعدّوا للأسوأ.

الأسوأ، لا تستطيع جوليا مواجهته. الأب لا يموت، الأب خالد، إنَّه صخرة وركيزة، لا سيما أبوها. بيترو لانفريدي هو قوة الطبيعة، سيجعلنا نحتفل بعيد ميلاده المئة، هكذا اعتاد أن يقول صديقه الدكتور سينيور وهو يحتسي معه قدحاً من **الغرابا**. أمّا بيترو، الحيوي، المرح، **البابا**، المحبّ للنبيذ الفاخر، ربُّ الأسرة، ربُّ العمل، الغضوب، العاطفي، هو، والدها، والدها المعبود، لا يمكن أن يموت. ليس الآن. ليس بهذه الطريقة.

يحتفل الناس اليوم بعيد القديسة سانتا روزاليا. يا للسخرية السوداء، تقول جوليا في سرّها. سيتقاطر سكان باليرمو المبتهجون طوال النهار لتقديم الشكر لشفيعتهم القديسة. وسيبلغ الاحتفال ذروته كما في كلّ عام. وكالعادة، أعطى والدها إجازة للعاملات حتى يشاركنَ في الاحتفالات - الموكب على امتداد **شارع فيتوريو إيمانويل**، ثم الألعاب الناريّة على **فورو إيتاليكو** عند حلول الليل.

لم تشعر جوليا برغبة في الاحتفال. وسعياً منها لتجاهل مظاهر الفرح، توجّهت للجلوس عند سرير والدها مع أمّها وأخواتها. لم يبدُ **البابا** متألماً في فراشه - هذه الفكرة أشعَرَتْها بشيء من الارتياح. بدا جسده القويّ فيما مضى هشّاً اليوم كأنَّه جسد طفل. يبدو أصغر من ذي قبل، تفكّر، كأنَّه تقلص. لعلّ هذا ما يحدث حين تصعد الروح... وعلى الفور تطرد من ذهنها هذه الفكرة المشؤومة. والدها موجود. لم يزل حيّاً. ويجب التمسّك بهذا. **ارتجاج دماغي**، بحسب الأطباء. وهي عبارة تعني: لا نعرف. لا أحد يستطيع القول إنْ كان سيعيش أو سيموت. هو نفسه يبدو أنَّه لم يحسم خياره.

تقول **الماما** يجب أن نصلي. هذا الصباح، تطلب من جوليا وأخواتها أن يرافقنها للطواف في سانتا روزاليا. العذراء فلوري تصنع المعجزات، تقول، برهَنَت على ذلك في الماضي حين أنقذَت المدينة من الطاعون، يجب أن نتضرَّع إليها. لا تحبّ جوليا هذه المظاهر من الورع الديني، ولا الحشد الذي تخاف حركاته

المفاجئة. إضافة إلى أنّها لا تؤمن بكلّ هذا. بالتأكيد تعمّدت وتناولت القربان - تتذكّر ذلك اليوم الذي ارتدت فيه الثوب الأبيض التقليدي وتناولت لأول مرّة سرّ القربان المقدّس تحت الأنظار الورعة والحادة لعائلتها المجتمعة. هذه الذكرى هي إحدى أجمل الذكريات في حياتها. لكنّها لا ترغب اليوم بالصلاة. تريد البقاء قرب البابا.

تصرّ أمّها. إذا كان الأطباء عاجزين، فإنَّ الله وحده يستطيع إنقاذه. تبدو في غاية الاقتناع إلى حدّ أنَّ جوليا حَسَدتها فجأة على إيمانها، هذا الإيمان الساذج الذي لم يهجرها قط. أمّها هي المرأة الأكثر ورعاً التي تعرفها. تذهب كلّ أسبوع إلى الكنيسة لتحضر قدّاساً باللغة اللاتينيّة التي لا تفقه شيئاً منها، أو تفهم النذر اليسير - **لا حاجة للفهم عند تعبُّد الله**، يروق لها أن تردّد. وانتهت جوليا إلى الخضوع.

انضموا معاً إلى الموكب وحشدِ المعجبين بالقدّيسة سانتا روزاليا، بين الكاتدرائية و**الكواترو كانتي**. مدٌّ بشري يتزاحم هناك لتقديم الشكر للعذراء فلوري التي حملوا تمثالها الضخم في الشوارع. الطقس حارّ في باليرمو في شهر يوليو، وجوٌّ خانقٌ مرهقٌ يغمر المدينة وجاداتها. تختنقُ جوليا وسط الموكب. تشعرُ بأذنيها تطنّان وبصرها يزوغ.

تستفيد جوليا من توقف أمّها للسلام على إحدى الجارات التي تطمئن على حالة **البابا** -انتشر الخبر في الحي بكامله- وتبتعد عن الموكب. تلجأ إلى زقاقٍ ظليل لتتبرّد بماء أحد المناهل. أصبح الهواء صالحاً للتنفس. وبينما تستعيد صحوها، تدوي صرخات صاخبة في الشارع غير بعيدة عنها. دركيان بزي رسمي يوبخان رجلاً داكن البشرة. يضع فوق رأسه عمامة سوداء والحارسان يُنذرانه بخلعها. يحتجّ الرجل بلغة إيطاليّة لا غبار عليها توشّيها نبرة غريبة: لم يخرق النظام، يقول وهو يبرز أوراقه. لكن الحارسين لا يصغيان إليه. يغضبان ويهدّدان باقتياده إلى المركز إذا أصرَّ على رفض الانصياع لأمرهما - قد يكون هنالك سلاح مخبّأ تحت غطاء الرأس، يؤكّدان، وفي يوم الطواف هذا لا يمكن ترك أيّ مجال للصدفة. يقاوم الرجل. فعمامته هي إشارة إلى انتمائه الديني، ومن المُحَرَّم خلعها على الملأ. وعلاوة على ذلك، هو لا يمانع من التحقّق من هويته، يستطرد، هذا ظاهرٌ على بطاقته الشخصيّة - امتيازٌ منحته الحكومة الإيطالية للسيخ. تراقب جوليا المشهَد بهيئة مضطربة. الرجل وسيمٌ. ومع قامته الرياضية، يتمتع بملامح رقيقة، وبشرة داكنة وعينين صافيتين على نحوٍ غريب. عمره ثلاثون عاماً أو أكثر. احتدت لهجة الدركيين وبدأ أحدهما بدفعه. أمسكاه بقوة وانتهيا إلى سحبه نحو مركز الدرك.

لم يقاوم الرجل المجهول. مرّ أمام جوليا بهيئة فيها كبرياء واستسلام في آنٍ معاً، والدركيان يحيطان به. وفي غضون لحظة،

تلاقَت نظراتهما. لم تخفض جوليا بصرها - ولا الغريب أيضاً. تراقبه يختفي عند زاوية الشارع.

ماذا تفعلين؟!

تصل فرنشيسكا خلفها وتجعلها تنتفض.

نبحث عنك في كلّ مكان!
هيّا! لنذهب!

وبأسف، تتابع جوليا طريق الموكب وراء أختها البكر.

في المساء، جفاها النوم. تعود إلى مخيّلتها صورة الرجل ذي البشرة الداكنة. لا يسَعها أن تمنع نفسها من التساؤل عمّا حدث له وعمّا فعله الدرك به. هل أزعجوه وضربوه؟ هل طردوه إلى بلده؟ يتشتّت ذهنها في تخمينات عابثة. لكنَّ سؤالاً يعذّبها أكثر من جميع الأسئلة الأخرى: هل كان يجب عليها أن تتدخل؟ وماذا كان بوسعها أن تفعل؟ تشعر بالذنب بسبب سلبيتها. إنَّها تجهل سبب اهتمامها بمصير هذا الرجل المجهول على هذا النحو. استولى عليها إحساسٌ غريب حين نظر إليها - إحساسٌ لم تكن تعرفه. أهو الفضول؟ أم التماهي مع الآخرين؟

إلّا إذا كان شعوراً آخر لا يَسَعها تسميته.

سـارة

مونتريال، كندا.

سقطَت سارة منذ قليل. في قاعة المحكمة وفي أثناء المرافعة. توقفَت أولاً عن الكلام، أنفاسها لاهثة، ونظرَت حولها كأنَّها لم تعُد تعرف فجأة أين هي. حاولَت أن تستأنف سلسلة حِججها رغم شحوب وجهها وارتعاش يديها اللذين وحدهما فضَحا توعّكها. ثم زاغ بصرها واسودَّ حقل رؤيتها وتسارعت أنفاسها. تباطأت دقات قلبها، وهجر الدم وجهها، كنهرٍ يتخلّى عن مجراه. انهارَت سارة على نفسها، مثل برجَي مركز التجارة العالمي اللذين قِيل عنهما إنَّهما لا يتزعزعان. حدث سقوطها بصَمت. لم تعترض ولم تطلب النجدة. انهارَت بلا ضجيج، كقصر ورقيّ. وبرضىً تقريباً.

حين فتحت عينيها، رأت رجلاً يرتدي زي الإطفائي منحنياً فوقها.

سيدتي، لقد تعرضتِ لوعكة. فأتينا بك إلى المشفى.

قال الرجل: سيدتي. كانت سارة تستعيد وعيها، لكن هذا التفصيل لم يفلت منها. تكره أن يدعوها أحد سيدتي، فهذه الكلمة لها وقع الصفعة عليها. الجميع يعرفون ذلك في المكتب: ينادونها أستاذة أو آنسة، ولا ينادونها البتة بالسيدة. زواجين وطلاقين أُلْغِيَتْ آثارهما. وهي أيضاً تنفر من هذه الكلمة التي تعني: لم تعودي شابة وآنسة، لقد انتقلتِ إلى الفئة التالية. تكره تلك الاستبيانات التي تضطرّها إلى وضع إشارة عند العمر الذي يخصّها. اضطرت إلى التخلّي عن جاذبيّة فئة عمر 30-39 عاماً، لتنتقل إلى فئة أعوام 40-49 الأقل جاذبية. لم ترَ سارة عقدها الرابع يأتي. لكنَّها واثقة أنَّها مرّت في الثامنة والثلاثين وحتى في التاسعة والثلاثين، أمّا الأربعين فحقاً لا، لم تتوقّعها. ولم يخطر ببالها أن تأتي بهذه السرعة. «لا أحد يبقى شاباً بعد الأربعين»، تتذكّر هذه العبارة لكوكو شانيل التي قرأتها في إحدى المجلّات، فأغلقتها على الفور. لم يسمَح لها الوقت لتقرأ البقيّة: «لكن بوسعه أن يبقى لا يُقَاوَم في كلّ عمر».

آنسة. تصحّح سارة على الفور، وهي تنهض. تحاول أن تنهض، لكن الإطفائي يوقِفها بحركة لطيفة وآمرة في آنٍ معاً. تعترِض وتتذكّر الملف الذي كانت ترافع به. قضيّة مستعجلة من الدرجة الأولى - كما هي حال قضاياها دوماً.

جُرِحْتِ أثناء وقوعك. يجب أن يخيطوا لك جرحكِ.

تقف إيناس إلى جانبها، المعاوِنة التي وظّفتها وتساعدها في ملفاتها. تُخبرها الشابة أنَّ الجلسة تأجّلت. اتصلَت منذ قليل بالمكتب لتأجيل مواعيدها التالية - وكدأبها دوماً تتمتع إيناس بردّة فعل مناسبة، وبفعالية وحيوية، وباختصار: كاملة. تبدو قلقة بشأن سارة، وتقترح أن تظلّ برفقتها في المشفى، لكنَّ سارة تُفضّل أن ترسلها إلى المكتب؛ ستكون أكثر نفعاً هناك، لكي تجهّز تبليغات اليوم التالي.

وبينما هي تُعالج في قسم الإسعاف في شوم(*)، يخطر ببال سارة أنَّه رغم اسمه الساحر الذي يُذَكِّر هنا بصديق أو صديقة ويحيل إلى معنى العلاقة الغراميّة، فإنَّ مركز الاستشفاء الجامعي بمونتريال لا يتمتّع بأي جاذبية. تنتهي إلى النهوض لتغادر. لا تنوي الانتظار ساعتين من أجل ثلاث قطب على الجبين، وستكفيها ضمادة بسيطة، إذ يترتب عليها أن تعود إلى العمل. يمسكها طبيبٌ ويُجْلِسُها من جديد: عليها أن تنتظر حتى ينتهوا من فحصها. تعترض سارة، لكن لا خيار آخر أمامها سوى الإذعان.

وأخيراً لدى الطبيب المقيم الذي يفحص صدرها بالسماعة يدان طويلتان ورشيقتان وله هيئة جادة. يطرح عليها الكثير من الأسئلة

(*) شوم: مركز الاستشفاء الجامعي في مونتريال. (المترجم)

فتُجيب عنها بطريقة مقتضبة. لا تُدرك الفائدة من كلّ هذا، فهي على خير ما يرام، تكرّر، لكن الطبيب المقيم يتابع فحصه. وعلى مَضض منها، مثل متّهم ينتزعون منه الاعترافات، تنتهي إلى الإقرار بذلك: أجل، إنَّها متعبة الآن. وكيف لا تكون متعبة ولديها ثلاثة أبناء ومنزل ينبغي ترتيبه وثلاجة يجب أن تملأها، علاوة على عمل يستنزف جُلَّ وقتها؟

لا تقول سارة أنَّها تنهض منذ شهر منهَكَة. وأنَّها كلّ مساء حين تعود، وبعد أن تستمع إلى تقرير رون حول يوم الأطفال وتتعشى معهم وتنيم التوأم وتستظهر دروس هانا، تنهار على الأريكة وتنام قبل أن تطفئ جهاز تحكّم هذه الشاشة العملاقة التي اشترتها منذ فترة وجيزة ولا تشاهدها أبداً.

لا تتحدث أيضاً عن هذا الألم في الجانب الأيسر من الصدر، الذي تشعُر به منذ بعض الوقت. وبلا شك لا شيء... لا ترغب بالحديث في ذلك، ليس هنا، وليس الآن، وليس لهذا المجهول بمريوله الأبيض الذي يتفرّس فيها بهيئة باردة. ليس الآن.

مكتبة

مع ذلك يبدو الطبيب المقيم قلقاً. ضَغْطُها منخفضٌ وأيضاً يعتريها هذا الشحوب. تقلّل سارة من أهميّة الأمر، تتظاهر، تخدع، وهي موهوبة بذلك. على أية حال، هذه مهنة. يعرف الجميع في المكتب هذه المزحة: **متى تعرف أن محامياً يكذب؟ حين تتحرك شفتاه.** لقد تَغَلَّبَتْ على أدهى قضاة المدينة، ولن يُوقِعَ بها طبيب

شابّ متدرّب. مجرّد تعب مفاجئ، هذا كلّ ما في الأمر. إرهاق؟ يُضْحِكُها هذا المصطلح. تعبيرٌ دارج، يُستخدَم في غير مكانه، كلمة كبيرة للغاية للتعبير عن تعب بسيط. لم تتناول كفايتها من الطعام هذا الصباح، أو لم تنَل قسطاً وافياً من النوم... لم تحصل على قدرٍ وافرٍ من القبل، همَّتْ أن تضيف بشيء من الدعابة، لكنَّ الهيئة الجدية للطبيب المقيم تثنيها عن أية محاولة للتقرب. خسارة، لولا جديته، لكان وسيماً بنظارته الصغيرة وشعره الأجعد و... ستتناول فيتامينات إذا أراد، أجل. وهي تبتسم، تصف كوكتيلاً مقوياً لديها سرّه: قهوة، كونياك وكوكايين. إنَّه فعّال جداً ويجب تجريبه.

ليس لدى الطبيب مزاج للدعابة. يقترح عليها أن ترتاح وتأخذ إجازة. «أن تهرب»، هذه هي العبارة التي يستخدمها. تنفجر سارة ضاحكة. يمكن للمرء إذاً أن يكون طبيباً ولديه حسّ الدعابة... الهرب؟ كيف؟ هل تبيع أولادها على موقع **إيبي** للمزادات؟ هل تقرّر عدم تناول الطعام ابتداءً من هذا المساء؟ هل تعلن لِزُبُنها أنَّها مضربة عن العمل في المكتب؟ إنَّها تدير قضايا حاسمة وحساسة لا يمكنها أن تعهَد بها لأحد. التوقّف ليس خياراً. أن تأخذ إجازة، لم تعُد تعرف حتى ما يعنيه ذلك، فهي لم تعُد تفلح تقريباً في تذكّر آخر عطلاتها الصيفيّة - العام الماضي، أم قبل الماضي؟... يطلق الطبيب هذه العبارة الجوفاء التي تفضّل عدم تسجيلها: **لا يوجد أحد لا يمكن استبداله**. واضح أنَّه ليس لديه أية فكرة عمّا يعنيه: أنَّها مساهِمة في مكتب **جونسون ولوكوود**. ولا أدنى فكرة عن المقصود: أن تكون في موقع سارة كوهن.

تريد أن تنصرف الآن. يحاول الطبيب استبقاءها لإجراء فحوص أخرى، لكنَّها تتهرب.

مع ذلك ليست من النوع الذي يؤجل إلى اليوم التالي. كانت تلميذة نشيطة في المدرسة، «تلميذة مجتهدة» كما يقول المدرِّسون. تكره إنجاز العمل في الدقيقة الأخيرة، وتحب أن تكون «السبّاقة» بحسب تعبيرها الخاص. اعتادت أن تكرّس الساعات الأولى من عطلتها الأسبوعيّة أو عطلاتها الطويلة لإنجاز فروضها، وبعدها كانت تشعر أنَّها حرّة أكثر. في المكتب أيضاً، تتقدّم دوماً على الآخرين، وهو ما أَهَّلها للترقي بسرعة فائقة. لا تترك شيئاً للصدفة، فهي ت-سا-بق.

لكن ليس هنا، ليس الآن.
ليست هذه هي اللحظة المناسبة.

عندئذٍ تعود سارة إلى عالمها، إلى مواعيدها، إلى مكالماتها الهاتفيّة، إلى جداولها، إلى ملفّاتها، إلى مرافعاتها، إلى اجتماعاتها، ملاحظاتها، تقاريرها، غداءات عملها، تبليغاتها، إجراءاتها المستعجلة، أطفالها الثلاثة. تعود إلى الجبهة مثل جندي صغير مخلص، وتضع هذا القناع الذي ارتدته دوماً والذي يناسبها، قناع المرأة المبتسمة الناجحة في كلّ شيء. قناعٌ لا يُصيبه تلف ولا

تشقّق. حين تصل إلى المكتب سَتُطَمْئِن إيناس ومعاونيها: إنَّه أمر عارض. وكل شيء سيستمر كما في السابق.

في الأسابيع التالية، ستذهب إلى عيادة طبيبة نسائية للمراقبة، أجل، ثمة شيء ما، ستقول وهي تفحص صدر سارة، وسيصطبغ وجهها عندئذٍ بالقلق، ستصفُ لها سلسلة فحوص ذات أسماء غريبة، تثير الخوف لمجرّد نطقها، ماموغرافي (الفحص الشعاعي للثدي)، صورة بالرنين المغناطيسي، صورة أشعة مقطعية، خزعة. فحوص تُعتبر لوحدها بمثابة تشخيص. وحُكم.

لكن الآن، **ليس هذا هو الوقت المناسب**. تغادر سارة المشفى خلافاً لرأي الطبيب.

الآن، كل شيء على ما يرام.

إذا لم يتحدّث المرء عن أمر، فهو غير موجود.

الحجرة ليست أكبر من غرفة نوم،
يمكنني أن أضع فيها سريراً، لا أكثر.
وأيضاً، سيكون سرير طفل.
هناك أعمل وحيدة،
يوماً بعد يوم، وبصمت.

بالتأكيد توجد آلات، لكن العائد مُجْزٍ أكثر.
هنا لا يوجد عمل بنظام السلسلة،
كلُّ طراز هو نموذج أصلي.
وكلُّ واحد منها هو موضع فخري.

وبمرور الزمن، أصبحت يداي مستقلتين تقريباً عن باقي جسدي.
وحين نحفظ الحركة،
نكتسب السرعة بمرور الأعوام.

أعمل منذ وقت طويل،
انهمكتُ في هذه المهنة
حتى بُلِيَتْ عيناي.

تعِبَ جسدي،
وصار كسيحاً بسبب الروماتيزم،
ومع ذلك،
لم تفقد أصابعي شيئاً من رشاقتها.

أحياناً، يفرُّ ذهني من هذه الورشة،
ويحملني
إلى أصقاع نهائيّة،
نحو حيوات مجهولة،
تصلني منها أصوات
كصدىً واهٍ،
وتمتزج بصوتي.

سـميتا

قرية بادلابور، ولاية أوتار براديش، الهند.

حين تدخل سميتا الكوخ، تلاحظ على الفور تعابير ابنتها. أسرعت بإنهاء جولتها ولم تتوقف عند جارتها لتتقاسم بقايا الطعام المقدّمة من الجات كما هي العادة. هرعَت إلى البئر وأخذَت الماء، ووضعَت سلّة الأسل، واستحمّت في الفناء - دلو ماء لا أكثر، يجب ترك الباقي من أجل لاليتا وناغاراجان. كلّ مساء، وقبل أن تدخل عتبة منزلها، تفرك سميتا جسدها بالصابون ثلاث مرّات، فهي ترفض أن تجلب معها هذه الرائحة المقزّزة إلى بيتها، ولا تريد أن تشاركها ابنتها وزوجها بهذه النتانة. هذه الرائحة، رائحة براز الآخرين، ليست هي، ولا تريد أن تُخْتَزَلَ إلى هذه الرائحة. لذلك تفرك بكلّ قوتها يديها وقدميها ووجهها، تفرك حتى تسلخ الجلد، وراء هذا النسيج الذي تستخدمه كستار، في صدر هذا الفناء، على طرف غابة في قرية بادلابور، عند تخوم مقاطعة براديش.

تجفّف سميتا نفسها وترتدي ملابس نظيفة قبل أن تدخل إلى الكوخ، لاليتا منزوية في ركن، تضمُّ ركبتيها إلى صدرها. نظرتها محدقة ومسمّرة على الأرض. وعلى وجهها يطفو تعبير لم تعهَده أمّها لديها، مزيج غامض من الغضب والحزن.

ما بكِ؟

لا تُجيب الطفلة. لا تنبس ببنت شَفة.

أخبريني.
احكِ لي.
تكلّمي!

تظلّ لوليتا صامتة ونظرتها شاردة، كأنَّها تحدّق بنقطة متخيّلة هي وحدها تراها، مكانٌ يصعُب بلوغه، بعيدٌ عن الكوخ، بعيدٌ عن القرية، لا يمكن لأحد الوصول إليه، ولا حتى أمّها. تثور سميتا.

تكلّمي!

تنكمش الطفلة، وتنكفئ على نفسها مثلما ينكفئ حلزونٌ مذعورٌ في قوقعته. من السهل تعنيفها والصراخ عليها وإرغامها على الكلام. لكن سميتا تعرف ابنتها: لن تأخذ منها شيئاً بهذه الطريقة. تحوّلَت

الفراشة في جوفها إلى سرطان. شعورٌ بالقلق يخيفها. ماذا حدث في المدرسة؟ لا تعرف شيئاً عن ذلك العالم، ومع ذلك أرسلَت إليه ابنتها، كنزها. هل أخطأَت؟ ماذا فعلوا لها؟

تنظر إلى الطفلة: يبدو ثوب الساري ممزّقاً على ظهرها. ممزقٌ، أجل، إنَّه ممزق!

ماذا فعلتِ؟
اتسختِ!
أين تسكعتِ؟!

تمسك سميتا يد ابنتها وتجذبها إليها لتفصلها عن الجدار: ثوب الساري الجديد الذي خاطته طوال ساعات، ليلة بعد ليلة، مُجَافِيَةً النوم ليكون جاهزاً في الوقت المناسب، هذا الساري الذي تفخر به، ممزقٌ وتالفٌ ومتسخٌ.

مزَّقتِه! انظري!

تبدأ سميتا بالصراخ، غاضبة، قبل أن تتسمّر. استولى عليها شكٌّ مرعب. تسحب لاليتا إلى الفناء إلى الضوء - داخل الكوخ مُعْتمٌ وقلّما يدخله النور. تباشرُ بتجريدها من ملابسها، وتنزعُ عنها ثوب الساري بعُنف. لم تُبدِ لاليتا أيّة مقاومة، ويرتخي القماش بسهولة، فمقاس الثوب أكبر من مقاسها بقليل. ترتعشُ سميتا وهي

تكشف ظهر الطفلة: مُشَطَّبٌ بعلامات حمراء. آثار ضربات. الجلد مشقوٌّ في عدّة مواضع حساسة. أحمر قرمزي، مثل البندي.

مَن فعلَ بكِ هذا؟!
أخبريني!
مَن ضربكِ؟!

تُطأطئ الفتاة الصغيرة رأسها وتفلت منها كلمة. كلمة فقط.

الأستاذ.

يحمرّ وجه سميتا وتنتفخ أوداجها غضباً - تَنْفُرُ لاليتا من هذا الوريد البارز الذي يثير خوفها، فأمّها هادئة بالعادة. تمسكُ سميتا الطفلة وتهزّها، فيتمايل جسدها الصغير العاري مثل غصن.

لماذا؟
ماذا فعلتِ؟!
ألم تطيعي؟!

تنفجر: ابنتها متمرِّدة، وفي أوّل يوم لها في المدرسة! بالتأكيد لن يوافق المعلم على إعادتها، كل آمالها طارت، وكل جهودها تبخّرت! تعرفُ ما يعنيه هذا: العودة إلى المراحيض، إلى الوحل، إلى براز الآخرين. إلى هذه السلة، هذه السلة اللعينة التي أرادَت

حمايتها منها... لم تكن سميتا عنيفة قط، ولم تضرب أحداً قط، لكنها تشعرُ فجأة بفورة غضب جارفة. إنَّه شعورٌ جديدٌ يجتاحها كلّها، مَدٌّ يغطي سَدَّ عقلها ويغمره. تصفعُ الطفلة. تتكورُ لاليتا تحت الضربات، تحمي وجهها بيديها، بقدرِ ما تستطيع.

ها هو ناغاراجان يعود من الحقول، فيسمع صراخاً في الفناء، يُسرع. يتدخّل بين زوجته وابنته. **توقفي! سميتا!** ينجحُ في دفعها ويأخذُ لاليتا بين ذراعيه. تنتفضُ من النحيب. يكتشفُ آثار الضرب على ظهرها، والتشطيبات على الجلد المتشقّق. يضم الطفلة إليه.

تمرّدت على البرهمي، تصرخ سميتا. يلتفت ناغاراجان نحو ابنته، وهي لا تزال بين ذراعيه.

هل هذا صحيح؟

بعد لحظة صمتٍ، انتهت لاليتا إلى إطلاق هذه الجملة التي صفَعَت كليهما.

كان يريد أن أكنس الصف.

تسمّرَت سميتا. تحدّثَت لاليتا بصوتٍ خفيض، ولم تكن متأكدة أنها سمعت جيداً. طلَبَت منها أن تكرِّر ما قالته.

ماذا تقولين؟

كان يُريدني أن أكنس أمام الآخرين.
ورفضتُ.

تتكوّر الطفلة على نفسها خشيةَ تلقي ضرباتٍ جديدة. تصبحُ أصغر فجأة، كما لو أنَّها كانت تتقلص بتأثير الخوف. تتوقف أنفاس سميتا. تجذب الطفلة وتضمّها بقدر ما تسمح لها أعضاؤها الهشّة من القوة، وتشرَع بالبكاء. تدفنُ لاليتا رأسها في عنق أمّها، كعلامة على الاستسلام والسلام. تظلان هكذا لفترة مديدة، تحت أنظار ناغاراجان الحائرة. هذه أول مرة يرى فيها زوجته تبكي. وأمام المحن التي فرضتها الحياة عليهم، لم تهن عزيمتها قط، ولم تستسلم قط، فهي امرأة قويّة وعنيدة. لكن ليس اليوم. وهي تضمُّ جسدَ ابنتها المرضوض والمُهان، تعود طفلةً مثلها، وتبكي آمالها الخائبة، وهذه الحياة التي طالما حلمَت بها ولن يسَعها تقديمها لها، لأنَّه سيوجد دوماً جات وبرهميون ليذكِّروهم مَن يكونون ومن أين جاؤوا.

في المساء، وبعد أن مدَّدَت وهدهدَت لاليتا التي نامت أخيراً، تتركُ سميتا العنان لغضبها. لماذا فعلَ ذلك، هذا الأستاذ، هذا البرهمي، مع أنَّه وافق على استقبال لاليتا مع الآخرين، مع أطفال الجات، وأخذ نقودهم وقال لهم «موافق»!، هذا الرجل، تعرفه

سميتا، وتعرف عائلته أيضاً، منزله في وسط القرية. تنظفُ مراحيضه، كلّ يوم، وزوجته تعطيها الرز أحياناً. إذاً لماذا؟!

فجأة، تفكّر ثانية في البحيرات الخمس التي ملأها فيشنو بدم الكشاتر حين دافع عن طبقة البرهميين. إنَّهم المثقفون والكهنة والمتنورون، فوق الطبقات الأخرى، على رأس هرم البشريّة، فلماذا يهاجمون لاليتا؟ ابنتها لا تشكّل خطراً عليهم، ولا تهدِّد معرفتهم ولا مركزهم، إذاً لماذا يغطسونها هكذا في الوحل؟ لماذا لا يعلّمونها القراءة والكتابة أسوة بالأطفال الآخرين؟

كَنْسُ الصف، هذا يعني: لا يحقّ لك أن تكوني هنا. أنتِ من الداليت، زبالة، هكذا ستظلّين، وهكذا ستعيشين. ستموتين في البراز، مثل أمّك وجدتك من قبلك. ومثل أبنائك وأحفادك، وكلّ مَن ينتمي إلى سلالتك. وليس ثمة شيء آخر لأجلكم، أيُّها المنبوذون، حثالة البشرية، لا شيء آخر غير هذا، الرائحة المقزّزة إلى الأبد، وبالضبط براز الآخرين، براز العالم بأكمله لتلتقطونه.

لم تنصَعْ لاليتا. قالت لا. وعند هذه الفكرة، تشعُر سميتا بالفخر بابنتها. هذه الطفلة ذات السنوات الست، لا يكاد طولها يتجاوز ارتفاع مقعد، نظرَت إلى البرهمي في عينيه وقالت له: لا. أمسَكَها وضربها بقضيب الأسل أمام الآخرين في الصف. لم تبكِ

لاليتا، ولم تصرُخْ، ولم تُصدر أيّ صوت. حين حانت ساعة الغداء حَرَمَها البرهمي من الوجبة، صادَرَ العلبة الحديديّة التي حضَّرَتْها لها سميتا. وأكثر من ذلك، لم يُعْطِ الحق للفتاة بالجلوس، كان يحقّ لها فقط أن تراقب الآخرين وهم يأكلون. لم تعترِضْ ولم تستجدِ. بقيَت واقفة، وحيدة. أبيّة. أجل، تفخر سميتا بابنتها، ربما هي تأكل الجرذ لكنَّها أقوى من جميع هؤلاء البرهميين والجاتيين مجتمعين، لم يُخْضِعُوها ولم يُحَطموها. أوسعوها ضرباً، أدموها ندوباً، لكن ها هي موجودة، هي نفسها في الداخل. سليمة.

لم يتّفق ناغاراجان مع زوجته: كان يجب على لاليتا أن تذعن، وتكنس، رغم كلّ شيء، فهذا ليس ذا شأن، ضربةُ مكنسة أقلّ إيلاماً من ضربةِ عصا الأسل... تنفجر سميتا. كيف بمقدوره أن يتحدث على هذا النحو؟! خُلِقَت المدرسة للتعليم وليس للاستعباد. ستذهب للتحدث إلى البرهمي، فهي تعرف أين يسكن، وتعرف الباب السرّي وراء منزله، تدخل منه كل يوم مع سلّتها لتنظيف قذارته... يمنعها ناغاراجان: لن تستفيد شيئاً من مواجهة البرهمي. الجميع أقوى منها. ويجب على لاليتا أن تتقبّل الإزعاجات إذا أرادَت العودة إلى المدرسة. فهذا ثَمَنُ تَعَلُّمِها القراءة والكتابة. هذه هي الحال في عالمهم، لا أحد يخرج من طبقته بلا عاقبة. كلّ شيء له ثمن هنا.

تتفرّس سميتا في زوجها وهي ترتعش غضباً: لن تدَع طفلتها تُصبح كبش فداء للبرهمي. كيف يجرؤ على تصوّر ذلك؟ كيف يمكنه

حتى التفكير بهذا؟! عليه أن يدافع ويثور ويُناضل ضدّ العالم برمّته من أجل ابنته - أليسَ هذا ما يترتب على الأب أن يفعله؟ تُفَضِّلُ سميتا الموت على أن ترسلها مرّة أخرى إلى المدرسة؛ لن تضع لاليتا قدمها فيها ثانية. تلعنُ هذا المجتمع الذي يسحَق الضعفاء والنساء والأطفال وكلّ أولئك الذين يتوجب عليه حمايتهم.

ليكن، يُجيب ناغاراجان. لن تعود لاليتا إليها. غداً، ستصحبها سميتا معها في جولتها. ستعلِّمها مهنة أمّها وجدتها. ستورِّثها سلتها. وعلى أيّة حال، هذا ما تفعله نساء أسرتها منذ قرون. هذه هي تعاليم البوذيّة. أخطأَت سميتا حين أَمِلَت بشيء آخر لها. أرادَت أن تخرج عن سواء السبيل، عن الصراط المرسوم لها، فأعادها البرهمي إليه بضربات موجعة من عصا الأسل. انتهى النقاش.

في ذلك المساء، صلَّتْ سميتا أمام المعبد الصغير المكرّس للإله فيشنو. تعرف أنَّها لن تستطيع النوم. تفكّر ثانية ببحيرات الدم الخمس وتتساءل عن عدد البحيرات من دمهم هم، المنبوذون، التي سيترتب عليهم ملؤها لتحريرهم من هذا النير السحيق. يوجد الملايين مثلها، كتلٌ مسحوقةٌ تنتظر موتها، وكلّ شيء سيكون على ما يرام في الحياة القادمة، كانت أمُّها تقول، إلّا إذا توقفت دورة التناسخ الجهنميّة. **النيرفانا**(*)، المصير الأخير، هو ما كانت تأمَله.

(*) النيرفانا: في البوذية هي حالة الخلو من المعاناة. (المترجم)

الموت قرب نهر الغانج، النهر المقدّس، كان حلمها. يُقال إنَّه بعد ذلك تتوقّف الدورة الجهنميّة للحياة. لا يعود المرء يولد ثانية، وينصهر في المطلق، في الكون، وهذه هي الغاية العليا. وهذه الفرصة لا تسنح لكل الناس، كانت تقول. فالآخرون محكومٌ عليهم أن يعيشوا. ويجب قبول نظام الكون كشريعة إلهيّة. وبناء عليه: الأبديّة تُسْتَحق.

وبانتظار الأبديّة، يخضع الداليت للذلّ.

لكن ليست سميتا. وليس اليوم.

بالنسبة لها، قَبِلَت هذا المصير مثل قدر غاشم. لكنَّهم لن يحصلوا على ابنتها. لقد قطعَت على نفسها عهداً، هناك، أمام المذبح المخصّص للإله فيشنو، وسط الكوخ المعتم الذي ينام فيه زوجها الآن. لا، لن يحصلوا على لاليتا. تَمَرُّدُها صامتٌ، غير مسموع، وتقريباً غير مرئي.

لكنَّه موجود.

جوليا

باليرمو، صقلية.

يشبه حسناء الغابة النائمة، تفكّر جوليا وهي تنظر إلى والدها.

يرقد منذ ثمانية أيام، في سرير المشفى ذي الأغطية البيضاء. حالته مستقرّة. يبدو ساكناً، وهو نائم على هذا النحو، مثل خطيبةٍ تنتظرُ مَن يأتي ليوقظها. تفكّر جوليا بحكاية **حسناء الغابة النائمة** التي كان يقرؤها لها كلّ مساء حين كانت طفلة. كان يتصنّع صوتاً رزيناً ليقلِّد الجنيّة الشريرة - تلك التي تلقي سحراً مشؤوماً. سمعَت جوليا هذه الحكاية الخرافيّة ألف مرّة، لكنَّها ظلّت تشعر بالراحة عندما كانت الأميرة تستيقظ في نهاية المطاف. وقد أحبَّت حبّاً جماً صوتَ أبيها الرنان في منزل العائلة عند حلول الليل.

صَمَتَ الصوت.

ليس ثمة سوى السكون الآن، حول **البابا**.

لا بدّ من استئناف العمل في الورشة. أبدَت جميع العاملات دعمهنَّ لجوليا. حضَّرَت لها جينا الكاتو الصقلي الذي تحبّه حبّاً جماً. واشترت آغنس الشوكولا من أجل **الماما**. واقترحَت **النونا** أن تنوب عنها قرب سرير **البابا**. وأليسا التي لديها أخٌ كاهن، أقامت الصلوات للقدّيسة كاترينا. إنَّه مجتمع صغير يحتضنُ جوليا ويرفضُ الاستسلام للحزن. وأمامهنَّ، تريد الشابة أن تبقى إيجابيّة، كما كان أبوها دوماً. سيخرجُ من سباته، إنَّها واثقة من ذلك. وسيستعيد موقعه هنا. إنَّها حالة عابرة، تقول في سرّها، وقتٌ مُسْتَقْطَعٌ.

كلّ مساء، تذهبُ للجلوس قرب سريره بعد إغلاق الورشة. اعتادَت أن تقرأ له - بحسب الأطباء، المرضى في حالة السبات يسمعون ما يُقال حولهم. لذلك تقرأ جوليا بصوت مرتفع لساعات الشعر والنثر والروايات. جاء دوري الآن لأقرأ له الحكايات، تقول في سرّها. لطالما فعلَ ذلك من أجلي. وها هو الآن، حيث هو، **البابا** يسمعها. إنَّها تعرف ذلك.

في ذلك اليوم، ذهبت إلى المكتبة عند استراحة الغداء لتستعير منها كتباً لهذه الغاية. وبينما هي تدخل إلى صالة القراءة، الغارقة في الصمت، يحدث أمر غريب. لا تراه على الفور، وهو متوارٍ بين الرفوف. وفجأة تلمَحه.

إنها هناك.

العمامة.

عمامة المرة السابقة، عمامة الطريق، يوم القديسة روزاليا.

تمكث جوليا مذهولة. ترى المجهول من ظهره -لا تستطيع رؤية وجهه. يُغَيِّر الممر، فتحذو حذوه وهي مضطربة. وبينما يُمسك كتاباً، ترى أخيراً ملامحه- إنَّه هو، الرجل الذي أوقفه الدركيّان... يبدو أنَّه يبحث عن شيء ما ولا يفلح في العثور عليه. وهي مرتبكة من هذه الصدمة، تظلّ جوليا لبرهة تراقبه. لم يلاحظها.

انتهت إلى الاقتراب. لا تعرف كيف تخاطبه - ليس من عادتها مشاكسة الرجال. وبالعادة، هم مَن يأتون للتحدّث إليها. جوليا جميلة، غالباً ما قِيل لها ذلك. ورغم هيئتها الصبيانيّة، تكشفُ عن مزيجٍ من البراءة والشهوانيّة، مزيجٌ لا يدَع ممثلي الجنس الذكوري لا مبالين. **تلتمع العيون عند مرور الفتيات**. تعرف ذلك. الإيطاليون موهوبون بالكلام المعسول وطقوس الغزل - تعرف حق المعرفة إلى أين يفضي هذا. مع ذلك، تستولي عليها جرأة غير متوقعة.

صباح الخير.

يلتفتُ المجهول وهو مندهش. يبدو أنه لم يتعرّف إليها. تنتظر جوليا لبرهة وهي خجلة.

رأيتكَ بالأمس، في الطريق أثناء الاحتفال. عندما الدركيّان...

لا تنهي جملتها، وتشعر بالضيق فجأة. وإذا أزعجته ذكرى الحادثة؟ ... الآن، تندم على جرأتها. تودّ لو تختفي، لو أنَّها لم تخاطبه قط. لكنَّ الرجل يهزُّ رأسه. تعرَّفَ عليها الآن.
تستطرد جوليا:

خفتُ... أن يضعوكَ في السجن.

يبتسم بتعبير يمزج بين البراءة والتسلية. فمَن هي هذه الفتاة الغريبة التي تبدو قلقة بشأنه؟

احْتَفَظوا بي فترة ما بعد الظهر. وتركوني أغادر.

تراقبُ جوليا قسماته. رغم بشرته الداكنة، عيناه صافيتان على نحوٍ لا يُصَدَّق، تراهما بوضوح الآن. إنَّهما بلون أزرق يميل إلى الأخضر - أو بالعكس. المزيج مُثير للاهتمام. تتجرأ على القول:

ربما يُمكنني مساعدتك.
أعرفُ الرفوف جيداً.
هل تبحث عن كتابٍ محدّد؟

يشرح الرجل أنَّه يريد كتاباً باللغة الإيطاليّة - يُحَدِّد: كتابٌ غير

معقّد وسهل. ومع أنَّه يتحدث بطلاقة، إلّا أنَّه لا يزال يجد صعوبة باللغة المكتوبة. ويريدُ أن يُحَسِّن مستواه. توافق جوليا. تقوده إلى جناح الأدب الإيطالي. تتردّد - فالمؤلفون المعاصرون يبدون عسيرين على الفهم. وتنتهي إلى نصحه برواية لسالغاري قرأتها وهي طفلة: **أطفال الهواء**، روايتها المفضَّلة. يأخذها المجهول ويشكرها. أيّ رجل هنا كان سيسعى لاستبقائها، وسيبدأ معها حديثاً. كان سيستغلّ الفرصة ليحاول إغواءها. أمّا هو فلا. يُحييها ببساطة، قبل أن يبتعد.

وهي تراه يغادر المكتبة، ومعه الكتاب الذي استعاره للتو، تشعرُ جوليا أنّ قلبها يخفق. تلومُ نفسها لأنَّها تفتقر إلى الشجاعة للّحاق به. لا تحدث هذه الأشياء هنا. لا أحد يجري وراء شخص التقاه للتوّ. تأسف لأنَّها تلك المرأة الشابة التي تركن للأحداث حتى تراها تمرّ دون أن تتجرّأ على تغيير مسارها. تلعن في هذه اللحظة قلّة جرأتها وسلبيّتها.

بالتأكيد حظِيَت بأصدقاء ومغازلين، وبعض الغراميات. ثمة قبلات ومداعبات في الخفاء. لم تعترض جوليا واكتفَت بالاستجابة للاهتمام الذي يبدونه حيالها. لم تبذل جهداً قط لتحصل على الإعجاب.

تستأنف طريقها نحو الورشة وهي تفكّر في الرجل المجهول،

بتلك العمامة التي تجعله يبدو خارج المكان وخارج الزمان. بشعره الذي يجب أن يخفيه. بجسده أيضاً تحت القميص المدعوك. وتحمرُّ خجلاً عند هذه الفكرة.

تعود في اليوم التالي، يحدوها أمل خفيّ بأنَّها ستلتقيه مرّة أخرى. مع أنَّها ليست بحاجة إلى كتاب في ذلك اليوم، فهي لم تُنْهِ بعد الكتب التي تقرأها **للبابا**. تتسمر وهي تدخل قاعة المطالعة: الرجل هناك. في المكان ذاته الذي كان فيه بالأمس. يرفع بصره نحوها كما لو أنَّه كان ينتظرها. وفي هذه اللحظة، تشعر جوليا أنَّ قلبها سيسقط بين قدميها.

يدنو منها، مقترباً إلى حدٍّ استطاعت معه أن تشعر بأنفاسه الدافئة والعذبة. كان يريد أن يشكرها على الكتاب الذي نصحته به. لم يكن يعرف ماذا يقدّم لها، فجلب لها زجاجة صغيرة من زيت الزيتون، من التعاونيّة التي يعمل بها. تتفرّس فيه جوليا وهي متأثرة؛ لديه مزيج من العذوبة والكبرياء يثيرها. هذه أول مرّة يُربكها فيها رجل على هذا النحو.

تأخذ القارورة وهي مذهولة. يوضّح أنَّه عَصَرَ بنفسه الثمار بعد أن جمعها. وبينما يهمُّ بالانصراف، تتشجّع جوليا. تحمرُّ وجنتاها وهي تقترح عليه أن يتمشّيا على رصيف المرفأ... فالبحر قريب والسماء صافية...

ينظر المجهول إلى الساعة قبل أن يوافق.

كمالجيت سينغ -هذا اسمه- ليس ثرثاراً. يُفاجئ هذا التفصيل جوليا؛ فالرجال هنا ذلقو اللسان، ويروق لهم التحدّث عن أنفسهم. دور النساء هو الإصغاء لهم. وكما شرحت لها أمُّها، يجب أن تترك مجالاً للرجل كي يتألق. كمال رجلٌ مختلف. لا يُفصح عن نفسه بسهولة. لكنَّه يوافق أن يروي قصته.

إنَّه من معتنقي ديانة السيخ، غادرَ كشمير وهو في سن العشرين، فاراً من العنف الممارَس ضد أقاربه هناك. ومنذ أحداث عام 1984، حين قمع الجيش الهندي بالدم المطالبين بالانفصال، وارتكب مجزرة بحق المؤمنين في معبد الهيكل الذهبي، صار مصيرهم في خطر. وصل كمال إلى صقلية في ليلة قارسة، دون أهله - اختار الكثيرون إرسال أبنائهم إلى الغرب عند بلوغهم سنّ الرشد. استقبله تجمعٌ مهم للسيخ في الجزيرة. فإيطاليا هي البلد الأوروبي الثاني الذي يستقبلهم بعد إنكلترا، يقول. بدأ يعمل عن طريق متعهدي اليد العاملة المهاجرة، وهي طريقة تُزَوِّد أرباب العمل بأيدٍ عاملة رخيصة. يروي كيف يوظّف المتعهد المخالفين ويُرسلهم إلى أماكن عملهم. ولتغطية نفقات انتقالهم والحصول على ثمن زجاجة الماء والشطيرة الهزيلة التي يقدّمها لهم، يحصل المتعهّد على نسبة مئوية من أجرهم، تصل أحياناً إلى النصف. يتذكّر كمال أنَّه عَمِلَ بأجر يورو أو اثنين في الساعة. وجَمَعَ كلّ أنواع الثمار التي تنتجها الأرض هنا: الليمون، الزيتون، البندورة، الكرز، البرتقال،

الأرضي شوكي، الكوسا، اللوز... لم يكن بالإمكان التفاوض حول شروط العمل. فإمّا أن تقبل بما يقدّمه المتعهد أو تغادر.

أخيراً أتى صبره أُكُلَهُ؛ فبعدَ ثلاث سنوات على إقامته غير القانونيّة، حصل كمال على وضعيّة لاجئ، وبطاقة إقامة دائمة. وجدَ عملاً ليلياً في تعاونيّة لصناعة زيت الزيتون. إنَّه عملٌ يروق له. يروي كيف يندف أغصان الزيتون بنوع من الممشاط ليجمع الثمار دون أن يُتلفها. يُحِب صحبة هذه الأشجار التي تُعَمِّر ألف عام أحياناً. يقول إنَّ عمرها المديد يُذهله. ويختتم مبتسماً، الزيتون غذاء مبارك، ورمز للسلام.

ومع أنّ الإدارة الحكوميّة نظَّمَت وضعه القانوني، إلّا أنَّ البلد لم يَتَقَبَّلَه. فالمجتمع الصقلي ينظرُ إلى المهاجرين إليه من بعيد، ويتقارب العالمان دون أن يتبادلا الحديث. يعترف كمال أنَّه يتحسّر على بلده. حين يتذكّره، يُغَلِّفُه حجابٌ من الحزن، كمعطف فضفاض يتماوج حوله.

في ذلك اليوم، عادت جوليا إلى الورشة متأخرة ساعتين. ولكي تهدئ **النونا** التي قلقت عليها، تدّعي أنَّ إطار دراجتها انفجر.

لا تقول الحقيقة: ومع أنَّ الإطارين سليمين، إلّا أنَّ روحها غرقت للتو.

سـارة

مونتريال، كندا.

أُلْقِيَتْ القنبلة. انفجرَت للتو هنا، في عيادة هذا الطبيب الأخرق الذي لا يعرف كيف يُعْلِن الخبر. ومع أنَّ لديه تجربة وسنوات من الممارسة في مجاله، لكن ها هو ذا، لم يتأقلم. يعتريه شعور بالشفقة على مريضاته بلا شك، وعلى جميع النساء الشابات والأقل شباباً اللاتي يرين حياتهنَّ تنهار في بضعة دقائق عندما يعلن الكلمة المرعبة.

BRCA2. ستتعرف سارة فيما بعد على اسم هذه الطفرة الجينيّة. على لعنة نساء الأشكيناز. كما لو أنَّه لم يكفيهنَّ ما حاق بهنَّ، ستفكّر. فقد واجهن المذابح والمحارق. فلماذا هي وقريباتها مرّة أخرى أيضاً؟ ستقرؤها بوضوح في مقال طبي: احتمال إصابة نساء الأشكيناز اليهوديّات بسرطان الثدي هو واحدة من بين كلّ أربعين امرأة مقابل واحدة من بين خمسمئة امرأة من إجمالي عدد

السكّان الكلّي. هذه حقيقة علميّة مثبتة. وثمة عوامل مساعدة: وجود إصابة بين أقرباء النسب المباشرين، الحمل بتوأم... كلّ هذه الدلائل كانت موجودة، ستفكّر سارة، مرئية وواضحة. لكنَّها لم ترها. لم تشأ أن ترها.

في مواجهتها، كان الطبيب بحاجبيه الداكنين والمشعثين. لم تستطِع سارة أن تحيد بنظرها عنه؛ أمر غريب، فهذا الرجل الذي لا تعرفه يُخبرها الآن عن الورم في صوره الشعاعيّة. بحجم برتقالة صغيرة، يحدّد، لكنَّها لا تُفلح في التركيز على ما يقوله. تشعر أنَّها لا تُميز إلّا هذين الحاجبين الداكنين والأشعثين، الشبيهين بأرض مأهولة بالوحوش؛ ويُوجد شعر يخرج من أذنيه أيضاً. وبعد عدّة أشهر، حين ستفكّر سارة ثانية بهذا اليوم، هذا أول ما ستتذكّره: حاجبا الطبيب الذي أخبرها أنَّها مصابة بالسرطان.

بالتأكيد لم يقُل الكلمة، فهذه كلمة لا أحد ينطقها، كلمة يجب تخمينها، خلف التوريات واللغة الطبية الغامضة التي يُغرِقُها فيها. كأنَّها شتيمة، كأنَّها محرّمة، كأنَّها ملعونة. مع أنَّه هذا هو المقصود منها.

إنَّه بحجم برتقالة صغيرة، قال. إنَّه هنا. هنا بالضبط. لكن سارة بذلت ما بوسعها لتأخير هذا الاستحقاق، ولئلا تعترف بالألم الواخز، والتعب الشديد. طردت هذه الفكرة كلما خطرت لها،

وكلّما سيُتاح لها -أو ستضطر؟- أن تصيغها، لكن يترتب عليها اليوم مواجهتها. إنَّه هنا، إنَّه موجود.

برتقالة، هذا كبير وزهيد في آنٍ معاً، تفكّر سارة. لا يسَعها أن تمنع نفسها عن الادّعاء بأنّ المرض أخذها غدراً، في حين كانت تتوقّع أقل من ذلك. ورمٌ خبيثٌ وماكرٌ، عَمِلَ بصمتٍ في الظل وجهَّزَ لضربته.

تُصغي سارة للطبيب وتراقب شفتيه تتحرّكان، لكن لا يبدو أنّ كلماته تؤثر فيها، كما لو أنَّها تصلها عبر بطانة سميكة، كما لو أنَّها في العمق لا تعنيها. لو كانت تخصُّ قريباً، لشعرَت بالقلق، لارتعبَت ولانهارَت. أمّا وأنَّ الأمر يخصّها، فإنَّها لم تهتم على نحوٍ يُثير الدهشة. تصغي إلى الطبيب دون أن تصدّق، كأنَّه يحدِّثها عن شخص آخر، عن شخص لا تعرفه البتة.

في نهاية المحادثة، يسألها إن كانت لديها أسئلة. تهزّ سارة رأسها وتبتسم بتلك الابتسامة التي تتقنها وتبديها في جميع الظروف، تلك الابتسامة التي تعني: **لا تقلق، سيسير الأمر على ما يرام**. هذه خدعة بالتأكيد، إنَّها قناع تخفي وراءه همومها وشكوكها وقلقها - مستودعٌ كبيرٌ في داخلها، إنْ صحّ القول. أمّا من الخارج، فلا يظهر شيء. ابتسامةُ سارة عفويّة ولطيفة وكاملة.

لا تسأل الطبيب عن حظوظها، فهي ترفض أن تَقْصِرَ مستقبلها على مجرد إحصاء. يُريد البعض أن يعرف، أمّا هي فلا. لن تدع الأرقام تتدخل في حياتها، في وعيها، في مخيّلتها، فهي قادرة على التضخّم كالورم ذاته، وعلى تقويض معنوياتها وثقتها وشفاءها.

في سيارة الأجرة التي تُعيدها إلى المكتب، تقوم بجردة حساب لحالتها. إنَّها مقاتلة وستحارب. ستُعَالِج سارة كوهن هذه القضيّة كما عالجَت كلّ القضايا الأخرى. هي التي لم تخسر إطلاقاً أو (إلّا ما ندر) ملفّاً، لن تستسلم لبرتقالة صغيرة، مهما كانت خبيثة: في قضيّة «سارة ضد ب»، هذا هو اسم البرتقالة القانوني من الآن فصاعداً، ستحدثُ هجمات وهجمات معاكسة، ولكماتٌ غادرة أيضاً بلا شك. لن يعترف الفريق الخصم بهزيمته بسهولة، وسارة تعرف ذلك، والبرتقالة فاجرة، وهي بالتأكيد الخصم الأكثر مكراً الذي اضطرّت لمواجهته. هذا يعني إجراءات على المدى الطويل، وستكون حرب أعصاب، وسلسلة من لحظات الأمل والشك، وفي لحظات أخرى ربما ستظن أنَّها هُزِمَت. سيترتّب عليها أن تتماسك، مهما كلّف الثمن. في هذا النوع من المعارك، يفوز الصبر، وسارة تعرف ذلك.

وكما لو أنَّها تدرس ملفاً، ترسمُ الخطوط الكبرى لاستراتيجيتها في الهجوم على المرض. لن تقول شيئاً لأحد. وفي المكتب، ينبغي ألّا يعرف أحدٌ بالأمر. سيكون للخبر تأثير قنبلة على فريق العمل، والأسوأ على الزبائن. قد يُقلقهم ذلك بلا طائل. سارة هي إحدى

مؤسِّسي المكتب وهي إحدى دعاماته، ويجب أن تبقى قويّة لئلا يتداعى البناء برمته. ثم إنَّها لا تريد شفقة الآخرين وتعاطفهم. بالتأكيد هي مريضة، لكن هذا ليس سبباً لتغيير حياتها. سيترتّب عليها أن تتحلّى بأكبر قدرٍ من التنظيم لئلّا تُثير الشبهات، وأن تبتكر رموزاً سرّيّة في مفكّرتها لجلسات علاجها في المشفى، وأن تجد أسباباً لتبرير غيابها. يجب أن تبدو مبدِعَة ومنهجيّة وماكرة. ومثل بطلة رواية عن التجسّس، ستقود سارة حرباً خفيّة. وكما يخفي المرء علاقة خارج الزواج، ستقوم بتنظيم أمر التستّر على مرضها. تعرف كيف تقوم بهذا، وكيف تُعيد توزيع حياتها، فلديها سنوات من الخبرة العمليّة. ستتابع بناء جدارها، وستجعله أكثر ارتفاعاً، وستزيده دوماً علواً. وعلى أيّة حال، نجحت في إخفاء حملها، وستنجح بالتأكيد في إخفاء مرضها بالسرطان. سيكون السرطان ابنها السرّي، ابنها غير الشرعي، الذي لن يشتبه أحد بوجوده. ابنٌ مخجلٌ وغير مرئي.

حين تعود سارة إلى المكتب، تستأنف نشاطها. تراقب خفية ردَّ فعل زملائها، ونظراتهم ونبرات أصواتهم. وتتأكّد بارتياح أنَّ أحداً لم يلاحظ شيئاً. لا، ليس ثمة كلمة «سرطان» منقوشة على جبينها، ولذلك لن يلاحظ أحد أنَّها مريضة.

أمَّا في داخلها، فكانت مهشّمة، لكنَّ أحداً لا يعرف ذلك.

سـميتا

قرية بادلابور، ولاية أوتار براديش، الهند.

الرحيل.

هذه الفكرة فرضت نفسها على سميتا، مثل إيعاز من السماء. ويجب أن تغادر القرية.

لن تعود لاليتا إلى المدرسة. ضربَها المعلم بعد أن رفضت أن تكنس الصف أمام رفاقها. وفيما بعد، سيغدو هؤلاء الأطفال مزارعين يتوجّب عليها إفراغ مراحيضهم. وهذا أمر غير وارد. لن تسمح سميتا بذلك. سمعَت هذه الجملة لغاندي ذات مرّة، وقد استشهد بها طبيبٌ صادفته في مستوصف القرية المجاورة: «يجب ألّا يلمس أحد بيديه البراز البشري» وعلى ما يبدو، أعلن المهاتما عن عدم شرعيّة قانون عدم المساس، المخالف للدستور ولحقوق الإنسان، لكنَّ شيئاً لم يتغيّر منذ ذلك الحين. تَقَبَّلَ معظمُ الداليت

مصيرهم دون احتجاج. اعتنقَ آخرون البوذيّة للفرار من نظام الطبقات، على طريقة بابا صاحب، الزعيم الروحي للداليت. سمعَت سميتا عن حفلات جماعيّة ضخمة، بَذَّلَ فيها الآلاف دينهم. وحتى صدرت قوانين ضدّ التبديل، في محاولةٍ لاحتواء هذه الحركات التي تضعف نفوذ السلطات - وصار يترتب على المرشحين للتبديل الحصول على إذنٍ من الآن فصاعداً، تحت طائلة الملاحقة القضائية، وهو تفصيلٌ لم يفلت من السخرية والتهكّم: مثل مَن يطلب من سجّانه الإذن بالهرب.

لا تستطيع سميتا التصميم على هذا الخيار. فهي شديدة التعلّق بهذه الآلهة التي كان أهلها يعبدونها قبلها. وأكثر من ذلك، هي تؤمن برعاية الإله فيشنو، وله تقيم صلواتها، صباحاً ومساء، منذ ولدت. وله تبوح بأحلامها وشكوكها وآمالها. سيؤلمها كثيراً أن تتخلّى عنه، وسيترك غياب فيشنو فراغاً كبيراً فيها، يصعب ملؤه. وسيزداد شعورها باليتم أكثر ممّا شعرت به عند موت والديها. وبالمقابل، هي لا تشعر أنَّها متعلقة بهذه القرية التي ترعرعت فيها. هذه الأرض القذرة التي يترتب عليها أن تنظفها يوميّاً، بلا كلل أو ملل، لم تمنحها شيئاً ولم تُقدّم لها شيئاً سوى تلك الجرذان المتضوّرة جوعاً التي يحملها ناغاراجان مساءً كغنائم بائسة.

الرحيل، الفرار من هذا المكان. هذا هو الحلّ الوحيد.

هذا الصباح، توقظ ناغاراجان. لقد نامَ بعمق بينما هي لم تذُق طعم الراحة. تحسد زوجها على نومه الهادئ؛ ففي الليل، هو بحيرة هادئة لا تعكّر سطحها أيّة دوامة، بينما هي تظلّ تتقلب لساعات. لا تحرّرها العتمة من عذاباتها وإنَّما على العكس تُرْجعها وتعطيها صدىً مرعباً. في الظلام، يبدو كلّ شيء لها دراماتيكيّاً وحاسماً. وغالباً ما تصلّي لكي تتوقف هذه الزوبعة من الأفكار التي لا تدعها وشأنها. تبقى أحياناً ليالٍ بكاملها وعيونها مُحَدِّقَة. تفكر، الناس غير متساوين في نومهم. الناس غير متساوين في أي شيء.

يستيقظ ناغاراجان متذمراً. تسحبه من فراشه. فكّرت: ينبغي مغادرة القرية. ليس لديهم ما يأمَلونه من هذه الحياة، هذه الحياة التي سلَبَتهم كلّ شيء. لم يفُت الأوان بالنسبة إلى لاليتا، فحياتها بدأت للتو. لديها كلّ شيء، باستثناء أنَّ الآخرين سيسلبونها. ولن تدعهم سميتا يفعلون.

زوجتي تهذي، يفكّر ناغاراجان، لقد أمضَت ليلة أخرى مضطربة. تصرّ سميتا: يجب أن يغادروا إلى المدينة. يُقال إنَّه توجد هناك أماكن محجوزة للداليت في المدارس والجامعات. أماكن لأناسٍ من طينتهم. هناك ستحظى لاليتا بفرصتها. يهزّ ناغاراجان رأسه، المدينة هي وَهْمٌ، حلمٌ سخيفٌ. يعيش الداليت فيها دون مأوى، متزاحمين على الأرصفة، أو في مُدن الصفيح التي تتكاثر على هامش التجمعات، كالثآليل على قدم. لديهم هنا سقف على

الأقل ولديهم ما يأكلونه. تثور سميتا: يأكلون الجرذان، ويلتقطون البراز. هناك سيجدون عملاً، وسيكونون محترمين. تشعر أنّها مستعدّة لخوض التحدي، فهي شجاعة وصلبة في المحن، وسَتَقْبَل بكلّ ما سيقترحه عليها، بكلّ شيء، ما عدا هذه الحياة. تتوسّل إليه. لأجلها. لأجلهم، لأجل لاليتا.

ناغاراجان مستيقظ تماماً الآن. هل فقدَتْ عقلها؟! هل تعتقد أنَّ بوسعها التصرّف على هذا النحو بحياتها؟ يُذَكِّرُها عندئذٍ بتلك القصة المرعبة التي هزّت القرية منذ بعض الوقت. قرَّرَت فتاة من جيرانهم، وهي مثلها من الداليت، أن تذهب للدراسة في المدينة. أمسكها الجاتيون وهي تفرّ عبر الحقول. اقتادوها إلى حقل بعيد، واغتصبوها طيلة يومين. حين عادت إلى منزل والديها، لم تكَد تستطيع المشي. ذهبوا لتقديم شكوى عند البانشايات، وهو مجلس القرية الذي يحكم هنا. بالتأكيد، يُسيطر عليه الجات. ولا تجلس فيه لا امرأة ولا داليت، كما ينبغي أن يكون عليه الحال. كل قرار للمجلس يتمتع بقوة القانون، حتى لو تناقَض مع الدستور الهندي. هذا القضاء الموازي لم يُنَاقش قط. اقترح المجلس بضع أوراق نقديّة للعائلة على سبيل التعويض، مقابل أن تسحب الشكوى، لكنَّ الشابة رفضتْ نقود العار. حاول والدها أن يساندها، ثم انتهى به الحال إلى الخضوع لضغط المجتمع، فانتحر تاركاً أسرته بلا مورد، وحُكِمَ على زوجته بقانون الأرملة المرعب. نُفِيَتْ هي وأبناؤها من

القرية، وأُرْغِمُوا على تركِ منزلهم. وانتهى بهم الحال إلى العَوَز التام، على حافة طريق، في حفرة.

تعرف سميتا هذه القصّة. ولا تحتاج أن يذكِّرها بها. فهي تعرف أن ضحايا الاغتصاب هنا، في بلدها، يُعْتَبروا مذنبين. لا يوجد احترام للنساء، وعلى الأخص إذا كنَّ منبوذات. هذه الكائنات التي يجب عليهم ألّا يلمسوها وألّا ينظروا إليها، يغتصبونها مع ذلك بلا حياء. يعاقبون الرجل المديون باغتصاب زوجته. ويعاقبون مَن يزني مع امرأة متزوجة باغتصاب أخواته. الاغتصاب سلاحٌ فعّال، سلاحٌ للتدمير الشامل. البعض يتحدّث عن وباء. قرارٌ حديثٌ لمجلس قرية تصَدَّرَ الصحف بالقرب من هنا. حُكِمَ على شابتين بأن تتعرّيا وتُغْتصبا في ساحة عامة، للتكفير عن جريمة أخيهما الذي هرب مع امرأة متزوجة، ومن طبقة أعلى. وحُكمها نُفِّذَ.

يحاول ناغاراجان أن يُعَقِّلَ سميتا: الفرار، هو وعدٌ بانتقام رهيب. سيهاجمون لاليتا أيضاً. فحياة طفلة لا تساوي أكثر من حياتها. سيغتصبون كلتيهما وسيعلقانهما على شجرة، مثل فتاتَي الداليت من قرية مجاورة في الشهر الماضي. سبقَ أن سمعت سميتا هذا الرقم الذي جعلها ترتعش: مليونا امرأة يُقْتلنَ في البلد كلّ عام. مليونان، ضحايا وحشيّة الرجال، يُقْتَلن وسط لامبالاة عامة. العالم برمّته لا يهتم. العالم تخلى عنهنَّ.

مَن تحسب نفسها إذاً، في مواجهة هذا العنف، وهذا الوابل من الحقد؟ هل تظن أنَّها تستطيع الفرار منه؟ هل تعتقد أنَّها أقوى من الآخرين؟

لا تتغلّب هذه الحجج المرعبة على عناد سميتا. سينطلقون في الليل. ستجهِّز لسفرهم خفية. سيذهبون إلى مدينة فاراناسي. المدينة المقدّسة على بعد مائة كيلومتر، ومن هناك سيستقلّون قطاراً لاجتياز الهند حتى تشيناي: أبناء خالتها يعيشون هناك، وسيساعدونهم. تقع المدينة على شاطئ البحر، ويُحْكَى أنَّ رجلاً أنشأ تجمّعاً للصيادين من أجل **الزبالين**، الناس من أمثالها. يوجد أيضاً مدارس لأطفال الداليت. ستتعلم لاليتا القراءة والكتابة. ستجد عملاً. ولن يعودوا مضطرين لأكل الجرذان.

يتفرّس ناغاراجان في سميتا الكافرة: من أين سيدفعون تكاليف السفر؟! تكلِّف نفقات تذاكر القطار أكثر من كلّ ما جمعوه من مال. دفعوا مدّخراتهم الهزيلة للبرهمي حتى يرسلون لاليتا إلى المدرسة، ولم يبقَ لديهم شيء. تخفض سميتا صوتها: إنَّها منهكة من ليالٍ لم تذق فيها طعم النوم، لكنَّها تبدو على نحو غريب أقوى من أيّ وقت مضى، هنا، في عتمة الكوخ الصغير. يجب أن تذهب لتستردّ المال. تعرف مكانه. رأت زوجة البرهمي وهي ترتب مدّخراتهم في إحدى المرّات في المطبخ، بينما كانت هي تدخل منزلهم لتفرّغ مراحيضهم. إنَّها تذهب إليه كلّ يوم، وستكفي لحظة لـ . . . ينفجر

ناغاراجان: أي مسّ شيطاني أصابها؟!؟ مشروعها المرعب سيقتلهم، هي وكلّ العائلة! يُفَضّل أن يلتقط الجرذان كلّ حياته ويُصاب بداء الكلب على أن يطاوِعَها في خطّتها الشيطانيّة! إذا قبضوا على سميتا، سيهلكون جميعاً وبأبشع طريقة. هذه اللعبة الخطرة لا تستحق العناء. لا يوجد أمل لهم لا في تشيناي ولا في أي مكان آخر. الأمل ليس في هذه الحياة، وإنّما في الحياة القادمة. وإذا ساروا على الصراط المستقيم، فقد ترأف بهم دورة التناسخ - يحلم ناغاراجان في سرّه أن يتجسّد في جرذ، لكن ليس في هيئة تلك الجرذان الكثة الوبر والجائعة التي يصطادها في الحقول بيدين عاريتين ويشويها مساءً، وإنّما على هيئة الجرذان المقدّسة في معبد ديشموك، قرب الحدود الباكستانيّة، حيث اصطحبه والده حين كان طفلاً: يُقَدَّرُ عدد جرذان المعبد بعشرين ألفاً. يعتبرونها بمثابة آلهة، يحميها السكان ويُطعمونها، ويحملون إليها الحليب. يسهر الكاهن على رعايتها؛ ويحملون إليها القرابين من كلّ مكان. يتذكّر ناغاراجان قصّة الآلهة كارني ماتا التي رواها له أبوه: فَقَدَتْ طفلاً وتوسّلَت أن يعود إليها، لكنّه تجسّد في جرذ. وبُنِيَ المعبد إكراماً لهذا الابن المفقود. ومن كثرة ما أمضى ناغاراجان أياماً في الحقول يصطاد القوارض، انتهى إلى احترامها، وأصبحت أليفة بالنسبة له، مثل قاضٍ يُكِنّ الاحترام للصّ طارده طوال حياته. وأخيراً، يقول في سرّه، هذه المخلوقات تشبهه: إنّها جائعة وتحاول البقاء على قيد الحياة. أجل، من اللطيف أن يتجسّد في جرذٍ في معبد ديشموك، وأن يمضي حياته يشرب الحليب. إنّها فكرة تدغدغه أحياناً بعد نهاره

الشاق وتُساعده على النوم. إنَّها الأغنية الغريبة التي تجعله يخلد للنوم، لكن لا يهم، فهي الأغنية التي تخصّه وحده.

لا ترغب سميتا إطلاقاً انتظار الحياة المقبلة، فما تريده الآن هو هذه الحياة لها ولابنتها لاليتا. تتذكر تلك المرأة من الداليت التي نجحَت في الوصول إلى قمة الدولة، مايا واتي كوماري، وهي أغنى امرأة اليوم في البلاد. منبوذة تصبح حاكمة! يُقال إنَّها تنتقل في طائرة مروحيّة. هي، لم تستسلم، ولم تنتظر من الموت أن يخلّصها من هذه الحياة، هي كافحت من أجل نفسها، ومن أجلهم جميعاً. يغضب ناغاراجان مرّة أخرى، لأنَّ سميتا تعرف حقّ المعرفة أنَّ شيئاً لن يتغير، وأنَّ هذه المرأة التي ارتقت وهي تَعِظُ في قضيّة الداليت لم تقدّم شيئاً لهم. تخلّتْ عنهم. هي تُحَلِّق في السماء وهم يغوصون في البراز، هذه هي الحقيقة! ولن يوجد أحد ليخلّصهم من هنا، من هذه الحياة، من هذه الكارما، لا مايا واتي ولا الآخرين، وحده الموت سيخلّصهم. وإلى ذلك الحين، سيبقون هنا، في هذه القرية التي ولدوا فيها وعاشوا فيها على الدوام. يخرج ناغاراجان من الكوخ بعد أن يلطمها بهذه الكلمات الشبيهة بضربة ساطور.

ليكن، تقول سميتا في سرّها. إذا كنتَ لا تريد المجيء معي، سأرحل من دونك.

جوليا

باليرمو، صقلية.

«ما يعيش الآن
لديه صوتٌ ودمٌ.
الأرض والسماء الآن
هما رعشة قويّة،
الأمل يجدلهما،
الصبح يثيرهما،
وخطاكَ وأنفاسكَ
عند الفجر تغمرهما»[1].

(1) تشيزاري بافيزي، العمل مشقة. سَيُقْبِلُ الموت ويرتدي عينيك، مختارات شعريّة، غاليمار، 1979.

يلتقي كمال وجوليا حالياً كل يوم. اعتادا أن يتقابلا في المكتبة عند الغداء وغالباً ما يذهبا للمشي قرب البحر. جوليا مهتمّة بهذا الرجل الذي لا يشبه في شيء أولئك الذين تعرفهم - من الصقليين، ليس لديه هيئتهم ولا سلوكهم، ولعلّ هذا ما يروق لها. الرجال في أسرتها متسلّطون، ثرثارون، غضوبون، وعنيدون. كمال على النقيض منهم.

لم تتأكد قط أنَّها ستلقاه. في كلّ ظهر، وهي تدخل إلى قاعة المطالعة، تبحث عنه بعينيها. يمكث فيها أحياناً، وفي بعض الأيام، لا يأتي. وهذا اللايقين اللذيذ لا ينفك يُعَمِّقُ فضول جوليا. في بطنها ثمة دغدغة توقظها ليلاً، شعورٌ جديد ولطيف. تقرأ وتُعيد قراءة قصائد بافيزي، فكلماتها هي الدواء الوحيد لاشتياقها له.

حدث الأمر ظهراً وهما يتنزّهان. تقوده جوليا أبعد من المألوف، نحو شاطئ لا يرتاده السائحون. تريد أن تُريه المكان الذي تقرأ فيه أحياناً. إنَّها مغارة لا يعرفها أحد، تقول؛ ويروق لها أن تعتقد ذلك على أيّة حال.

الخليج الصغير خالٍ في تلك الساعة. المغارة هادئة، رطبة ومعتمة، وبمنأى عن الناس. تخلع جوليا ملابسها دون أن تتفوّه بكلمة. ينزلق ثوبها الصيفي عند قدميها. يظلُّ كمال متسمّراً، متجمّداً كأنَّه أمام زهرة يتردّد في قطافها خشية أن يتلفها. تمدّ جوليا يدها

نحوه، في حركة هي أكثر من تشجيع: إنَّها دعوة. يحلُّ ببطء عمامته ويسحب العقدة التي تحافظ على شعره مضموماً. فينساب مثل شلّة صوف حتى خصره. لم يسبق لها أن رأت رجلاً له شعر بهذا الطول - هنا، النساء هنَّ مَن يطلقنَ شعرهنَّ هكذا. ورغم ذلك، ليس ثمة شيء من الأنوثة في كمال. تجده رجوليّاً على نحو لا يصدّق بهذا الشعر الأسود الفاحم. يُقَبِّلها بمنتهى الرفق، كما لو أنَّه يقبّل قدمي معبوده، وهو لا يكاد يجرؤ على لمسه.

لم يسبق لجوليا أن اختبرت شيئاً مماثلاً. يُمارس كمال الحبّ كأنَّه يصلي، بعينين مغمضتين، على قدر ما يستطيع. يداه خشنتان من ليالي العمل، لكن جسده في غاية الرقّة.

بعد لحظات الحب هذه، يظلّان لفترة مديدة متحاضنين. في الورشة، تسخر العاملات من الرجال الذين ينامون مباشرة بعد العناق، لكنَّ كمال ليس من هؤلاء. يُبْقي جوليا مضمومة إليه، مثل كنز لا يريد أن يفارقه. كان بوسعها أن تظلَّ لساعات هكذا، جسدها الملتهب على جسده، وبشرتها الفاتحة على بشرته الرقيقة والداكنة.

اعتادا أن يلتقيا هناك، في المغارة، قرب البحر. يعمل كمال ليلاً في التعاونيّة، وتعمل جوليا نهاراً في الورشة، ويتقابلان ساعة الغداء. لعناقهما طعم اللحظات المسروقة. صقلية بأكملها في العمل، منهمكة في المكاتب والبنوك أو الأسواق، أمّا هما فلا.

تلك الساعات تخصّهما، يتمتّعان بها ويفرطان في الاستمتاع. ثمة شيء من الجرأة والغرابة الفظّة في اكتشافِ جسدٍ في وضح النهار.

ترى جوليا في لقاءاتهما بهذه الطريقة أنَّهما يشبهان راقصي الترنتيلا(*) الذين كانت تشاهدهم إبان طفولتها في المراقص الصيفيّة: يتحاضنان، يتلامسان، يتباعدان، وهذه هي الحركات الراقصة لعلاقتهما، على إيقاع الذهاب والإياب من العمل، نهاراً وليلاً. اختلافٌ في التوقيت محبط بقدر ما هو رومانسي.

كمال رجلٌ غامضٌ. لا تعرف جوليا شيئاً عنه، أو تعرف القليل جداً. لا يتحدّث إطلاقاً عن حياته الماضية، تلك التي اضطرّ إلى التخلّي عنها للمجيء إلى هنا. وأمام مشهد البحر، تشرُد نظرته أحياناً. يتبدى عندئذٍ رداءٌ من الحزن يُدَثّره كلّه. الماء بالنسبة إلى جوليا هو الحياة، نبعٌ للمتعة يتجدّد باستمرار، أحد أشكال الشبق. تحب السباحة، والإحساس بانسياب الماء على جسدها. تحاول ذات يوم أن تستدرجه لكنَّه يرفض أن يسبح. **البحر مقبرة**، يقول لها، ولا تتجرأ جوليا على مناقشته. لا تعرف شيئاً عمّا عاشه، وعمّا سرقه الماء منه. لعلّه سيروي لها ذات يوم. وربما لا.

وهما معاً، لا يتحدّثان عن المستقبل ولا الماضي. لا تنتظر

(*) الترنتيلا: رقصة شعبيّة إيطاليّة مشهورة. (المترجم)

مكتبة

جوليا شيئاً منه، لا شيء سوى هذه الساعات المسروقة من فترة ما بعد الظهيرة. وحدها اللحظة الحاضرة تهمّ، تلك اللحظة التي يتعشّق فيها جسداهما أحدهما الآخر ولا يعودان إلّا جسداً واحداً، كما تنصهر قطعتان من لعبة البازل إحداهما في الأخرى تماماً.

ومع أنّ كمال لا يتحدّث إطلاقاً عن نفسه، إلّا أنّه يتذكّر بلده بتلقائيّة. كان بوسع جوليا الإصغاء إليه لساعات بأكملها. يشبهُ كتاباً مفتوحاً على أصقاع غريبة عنها. تُغْمِضُ عينيها وتشعرُ أنّها تُبحر على قارب هي الراكبة الوحيدة على متنه. يتحدّث كمال عن جبال كشمير وضفاف نهر جيلوم وبحيرة دال وفنادقها العائمة، يتحدّث عن لون الأشجار الأحمر في فصل الخريف، عن الحدائق الغنّاء، والزنبق الممتدّ على مدى البصر عند سفوح جبال الهيمالايا. تلحُّ عليه جوليا، تريد أن تعرف المزيد، احكِ، تقول، احكِ أيضاً. يتحدّث كمال عن دينه ومعتقداته، عن **راهيت ماريادا**، قانون السلوك عند السيخ الذي يُحَرِّم عليهم قصّ شعورهم ولحاهم، وشرب الخمر والتدخين وتناول اللحوم أو الانغماس في الميسر. يتحدّث عن إلهه الذي يُبَشِّر بحياة نقيّة وطاهرة، إله فريد وخالق ليس مسيحيّاً ولا هندوسيّاً ولا من أيّ معتقد، إنّه إله **واحد**، وهذا كلّ شيء. يعتقد السيخ أنّ جميع الأديان تفضي إلى دينهم، ولهذا هم جديرون بالاحترام. تحبُّ جوليا فكرة هذا الإيمان دون خطيئة أصليّة، دون جنة ونار - فهاتان الأخيرتان غير موجودتين إلّا في الحياة الدنيا، يعتقد كمال، وتفكّر أنّه يقول الحقيقة.

يشرح كمال أنَّ ديانة السيخ تَعتبر أنَّ للمرأة روح الرجل ذاتها. وتتعامل مع الجنسين بطريقة متساوية. يمكن للنساء تلاوة التراتيل الإلهيّة في المعبد والاحتفال بالقدّاس خلال جميع الاحتفالات، مثل طقس التعميد. يجب عليهن أن يكنَّ محترمات ومبجلات، لدورهنَّ في الأسرة والمجتمع. وعلى رجل السيخ أن ينظر إلى زوجة رجل آخر كأختٍ أو أمّ، وإلى ابنة رجل آخر كابنته. والدليل الساطع على هذه المساواة هو أنَّ الأسماء عند السيخ مختلطة، يستعملونها للرجال والنساء على حدٍّ سواء. وحدها الكنية تُفَرِّقُ بينهما: **سينغ** للرجال، وتعني «الأسد»، **وكاور** للنساء، ويترجمها «الأميرة».

الأميرة.

تحبُّ جوليا أن يُناديها كمال بهذه الطريقة. وأصبحَت معاناتها تزداد وطأة عندما تفارقه لتعود إلى عملها. سيكون من الممتع أن تقضي أياماً بكاملها معه، تقول في سرّها. نهارات وليالٍ أيضاً. يبدو لها أنَّ بمقدورها البقاء هنا، طيلة حياتها، تحبّه وتصغي إليه.

لكنَّها تعرف أنَّه لا يحقُّ لها أن تكون هنا. فليس لدى كمال بشرة آل لانفريدي ولا إلههم. تتخيّل ما ستقوله أمُّها: رجل بشرته داكنة، وليس مسيحيّاً أيضاً! سيجلِّلها العار. سينتشر الخبر في الحي بكامله.

تزايدَ تأخرُ جوليا في العودة إلى الورشة، بعد استراحة الغداء. تبدأ الشكوك تساور **النونا**. لاحظَت هذه الابتسامة على وجهها، وهذا البريق الجديد في عينيها. تزعم جوليا أنَّها تذهب كلّ يوم إلى المكتبة لكنَّها تعود لاهثةً، وخدّاها متوهّجان. وذات مرّة خالت **النونا** أنَّها رأت رملاً تحت وشاحها وفي شعرها... وبدأت العاملات بالثرثرة: لديها عشيق؟ مَن هو؟ أهو شاب من الحي؟ أيصغرها سناً؟ أم أكبر؟ تنفي جوليا بإصرارٍ يكاد يكون اعترافاً.

المسكين جينو، تتنهّد ألدا، سيتحطّم قلبه! يعرف الجميع هنا أنّ جينو باتاغليولا، معلمُ صالون تصفيف الشعر في الحي، مُوَلَّهٌ بها. يغازلها منذ سنوات. ويأتي كلّ أسبوع إلى الورشة ليبيع الشعر المقصوص؛ يمرُّ أحياناً من دون سبب، ليلقي التحيّة عليها فقط. جميع العاملات هنا يتسلّين بذلك. يضحكنَ على الهدايا التي يقدّمها بلا طائل. تظلُّ جوليا تمثالاً من رخام، أمّا جينو فيستمر في الأمل ويعود بلا كلل حاملاً بين ذراعيه رقائق محلّات من التين، تأكلها العاملات بشهيّة.

تذهب جوليا كلَّ مساء، بعد إغلاق الورشة إلى سرير والدها لتقرأ له. تلوم نفسها أحياناً بسبب إفراطها في الشعور بالحيويّة في خضم هذه المأساة. جسدها يبتهج، يرتعش، ويَسْتَمتع كما لم يَسْتمتع قط، بينما أبوها يصارع للبقاء على قيد الحياة. مع ذلك هي بحاجة إلى التمسّك بهذا، لكي تبرّر لنفسها الاستمرار، وحتى لا ترزح تحت

وطأة التعب والإرهاق. بشرة كمال هي مرهم وبلسم وعلاج لكآبة العالم. لا تريدُ أن تكون سوى هذا، جَسدٌ منغمس في المتعة، لأنَّ المتعة تجعلها واقفة، ومتشبّثة بالحياة. كانت تشعر أنَّها موزّعة بين مشاعر جيّاشة، تارة محبطة وأخرى متحمّسة. ومثل بهلوان يمشي على حبل، يراودها انطباع أنها تتمايل تحت رحمة الريح. وعلى هذا النحو، تقول في سرّها، تُقَرِّبُ الحياة ما بين اللحظات المظلمة واللحظات الساطعة. تأخذ وتعطي في الوقت ذاته.

كلّفتها اليوم **الماما** بمهمة، أن تذهب للبحث عن ورقة في مكتب أبيها في الورشة. يطلب منها المشفى وثيقة لم توفَّق في العثور عليها، **يا إلهي كم هو معقّد كلّ هذا**، تتذمّر. جوليا لم يطاوعها قلبها أن ترفض. لكنَّها لا ترغب بالدخول إلى تلك الحجرة. لم تطأها بقدمها منذ وقوع الحادث. ولا تريد أن تلمس حاجيات أبيها. تحرَص على أن يعود إلى المكان فيجده كما تركه، حين يتعافى من غيبوبته: هكذا سيعرف أن كلَّ الناس كانوا ينتظرونه.

تدفع باب غرفة العرض التي تحوّلَت إلى مكتب. تتريّث لزمن قبل الدخول إليها. على الحائط صورة بيترو مؤطّرة بالقرب من صور أبيه وجدّه، ثلاثة أجيال من عائلة لانفريدي تعاقبوا على إدارة الورشة. وأبعَد من ذلك بقليل، صورٌ أخرى مثبتة بمسامير: صورة فرنشيسكا وهي طفلة رضيعة، جوليا على دراجة الفيسبا الناريّة، أديلا يوم قربانها، **الماما** بثوب زفافها وابتسامتها جامدة قليلاً. البابا

(الحبر الأعظم) أيضاً، ليس فرانسوا وإنَّما جان بول الثاني، الأكثر إثارة للإعجاب.

الحجرة كما تركها أبوها صبيحة الحادث. تنظر جوليا إلى كرسيّه ومصنفاته وهذه المنفضة من الطين التي يرمي فيها أعقاب سجائره، والتي صنعتها له وهي طفلة وقدّمتها كهديّة. يبدو عالمه فارغاً من مضمونه ومأهولاً على نحوٍ غريب في الوقت ذاته. على المكتب، المفكّرة مفتوحة على صفحة مرعبة، صفحة 14 تموز. تشعر جوليا أنَّها عاجزة عن قلب هذه الصفحة. كأنَّ والدها أصبح موجوداً هنا فجأة، بكامله، في مفكّرة موليسكين ذات الغلاف الجلدي الأسود، كأنَّ بعضاً منه بقي بين أسطر المفكرة، في حبر هذه الكلمات، وحتى في هذه اللطخة الصغيرة أسفل الصفحة، المتخثّرة على الورقة. تشعر جوليا أنَّه موجود هنا. في كلِّ جُزَيء من الهواء، وفي كلِّ ذرّةٍ من الأثاث.

لبرهة، سوَّلت لها نفسها أن تعود أدراجها وتغلق الباب خلفها. لكنَّها لا تحرك ساكناً. وعدت **الماما** أن تُحضِر لها الورقة. تفتح ببطء الدرج الأول، ثم الثاني. الدرج الثالث الموجود في الأسفل مقفلٌ بالمفتاح. تنتابها الدهشة. يجتاحها هاجسٌ. ليس لدى **البابا** سرٌّ، وليس لدى آل لانفريدي ما يخفونه... لماذا هذا الدرج مقفل إذاً؟

تبدأ الأسئلة تجُوب رأسها. تعدو مخيّلتها كجواد جامح أطلقوا

له العنان. هل كان لأبيها عشيقة؟ حياةٌ خفيّة؟ أهي **البيوفرا** التي جاءت وأقفلته بأذرعها؟ . . . آل لانفريدي يرفضون أيّ عمل لاأخلاقي. . . إذاً لماذا يهاجم هذا الشك جوليا مثل هاجسٍ، ومثل سحابةٍ سوداء، تحجب أفقها؟

بعد بحثٍ قصيرٍ، تفلحُ في العثور على المفتاح، في علبة السيجار التي أهدَتها له **الماما**. ترتعش جوليا: هل يحق لها أصلاً أن تدخل إلى هنا؟ لم يزل لديها وقتٌ للتراجع. . .

بيدٍ مرتعشة، تُدير المفتاح. ينفتح الدرج أخيراً: يحتوي على كدسة أوراق. تستحوذ جوليا عليها.

عندئذٍ، تميد الأرض تحت قدميها.

سـارة

مونتريال، كندا.

في البداية، سارت خطّة سارة على ما يرام.

حصلت على أسبوعين إجازة لإجراء العمليّة. كانت بحاجة إلى ثلاثة أسابيع - أصرَّ الطبيب، أسبوع في المشفى يليه أسبوعان للراحة التامة، فاختزلتهما إلى أسبوع واحد. لا يَسَعها أن تأخذ أكثر دون أن تُثير الشكوك في المكتب. فهي لم تذهب في إجازة سنويّة منذ عامين ولم يحصل حتى أطفالها على عطلة في هذه الفترة، مَن سيأخذ ثلاثة أسابيع في منتصف شهر نوفمبر، بينما الجلسات تنهمر كما يتساقط الثلج على المدينة؟

لم تُخبر أحداً بشيء، لا في المكتب ولا في المنزل. شرحت لأولادها أنَّ عليها الخضوع «**لعمل جراحي**»، وأضافت «**ليس خطيراً**»، حتى لا تُقلقهم. تدبّرت أمرها لكي يكون التوأم عند أبيهما

في ذلك الأسبوع وهانا عند أبيها -فاحتجّت هانا لكنَّها أذعنت في النهاية لإرادتها. أوضحت سارة أنَّه لن يسعهم زيارتها في المشفى، مدّعيةً أنَّ ذلك غير مسموح للأطفال. إنَّها كذبة صغيرة، قالت في سرّها، لتُخَفِّفَ من الانقباض الذي شَعَرت به في قلبها. تريد أن تحميهم من هذا المكان، من هذا الجحيم الأبيض ذي الروائح الواخزة- وأكثر الروائح التي تزعجها في المشفى هذا المزيج من المُطَهِّر وماء جافيل الذي يُثير غثيانها. لا تريد لأطفالها أن يرونها هكذا، هشّة وضعيفة.

هانا، بشكل خاص، حساسة جداً. تهتزُّ مثل ورقة مع أيَّة نسمة. اكتشفَت ذلك مبكراً عند ابنتها، هذا الميل للتعاطف. تتجاوبُ مع ألم الناس وتتحمّل وزره كأنَّه ألمها. إنَّه مثل هِبَة، حاسة سادسة. وهي طفلة، كانت تشرَع بالبكاء حين ترى شخصاً آخر جَرَحَ نفسه أو يتعرض للتأنيب. كان يُبكيها تحقيقٌ صحفي على التلفاز، أو برنامج رسوم متحركة. تشعر سارة بالقلق أحياناً: فماذا ستفعل بإزاء هذه الحساسيّة الزائدة التي تُعَرِّضُها للفرح الكبير كما للحزن الغامر؟ ودّت لو تقول لها: احمي نفسك، وتَجَلَّدي، فالحياة قاسية والعالم فظّ، لا تتأثّري ولا تسقطي، كوني مثلهم أنانيّة، قاسية القلب، رابطة الجأش.

كوني مثلي.

لكنَّها تعرف أنَّ ابنتها هي روح انفعاليّة وعليها أن تتعامل معها هكذا. لذلك، لا، لا يسَعها أن تُخبرها بالأمر. في سنّ الثانية عشرة، ستفهم هانا جيداً ما تنطوي عليه كلمة سرطان... وستتنبّأ بشكلٍ خاص أنّ المعركة ليست مضمونة النتائج. لا تريد سارة أن تُحَمّلها هذا العبء وهذا القلق اللذان يسيران جنباً إلى جنبٍ مع المرض.

بالتأكيد لن يَسَعها أن تَكذِب إلى الأبد. وسينتهي أبناؤها إلى طرح الأسئلة. سيترتب عليها عندئذٍ أن تتكلم وتشرح لهم. تفكّر سارة، فيما بعد سيكون الوضع مناسباً أكثر. لعلّه تراجع من أجل قفزة أفضل، أيّاً كانت القفزة. هذه هي طريقتها في إدارة الأمور.

لم تقُل شيئاً أيضاً لأبيها وأخيها. ماتت أمها منذ عشرين عاماً بالمرض ذاته. لا تريد أن تفرض عليهما مجدّداً مسيرة مقاتل، وهذه الجبال الروسيّة المثيرة للعواطف، من أمل ويأس وخمود وانتكاس، فهي تعرف حقّ المعرفة ما تعنيه هذه الكلمات. ستصارع وحدها وبصمت. تعتقد أنَّه لديها من القوّة ما يكفي لذلك.

لم يلاحظ أحد شيئاً في المكتب. وَجَدَتْها إيناس متعبة فقط - أنتِ شاحبة، قالَت حين عادت سارة من إجازتها. ومن حسن الحظ أنَّها في فصل الشتاء، تختفي الأجساد وتتدثّر بالقمصان والكنزات والمعاطف. تحرصُ سارة على عدم ارتداء ملابس مُقَوَّرَة تكشف الرقبة والكتفين، وتبالغ باستخدام مساحيق التجميل أكثر من ذي

قبل، ونجحت الخطّة. ابتكرت نظاماً بارعاً للرموز في مفكرتها: توجد علامة لجلساتها في المشفى (موعد H)، وأخرى للفحوص، الخزعات والأشعّة، تضعها دوماً بين الظهر والساعة الثانية بعد الظهر (غداء خ)، وهلمَّ جراً. وسينتهي معاونوها إلى الاعتقاد أنَّ لديها عشيقاً. الحقُّ يُقال أنَّ هذه الفكرة تروقها. تستغرق أحياناً في التخيّل بأنَّها ستجد رجلاً على الغداء... رجلاً منعزلاً في مدينة على شاطئ البحر... سيكون ممتعاً... تتوقف أحلامها هنا، وتُعيدها بقسوة إلى المشفى والعلاج والفحوص. وبين فئة الفتيان، تتواصَل النقاشات على قدم وساق: **خرجَت اليوم أيضاً... بالأمس نزهة ما بعد الظهر... تطفئ هاتفها النقّال، أجل...** قد يكون لسارة كوهن إذاً حياة خارج هذا المكتب؟ ... مَن هو هذا الذي تلتقيه ظهراً وصباحاً وأحياناً بعد الظهر؟ ... هل هو زميل؟ مساهم؟ تميل إيناس إلى أنَّه رجل متزوج، يتبنى آخر فكرة أنَّها امرأة. وإلّا لماذا هذه المبالغة في الاحتياطات؟ تتابع سارة رَوْحاتها وغدواتها غير مكترثة. يبدو أنَّ مخطّطها يسير على ما يرام.

حتى الآن على أيّة حال.

ثمّة تفصيل سيغرب عن بالها، كما في أغلب قصص الجريمة، تفصيل يربكُ القاتل. أم إيناس مريضة. كان عليها أن تتنبأ بذلك. لو أنَّها فكّرت في الأمر، فهذه المعلومة وصلتها منذ زمن طويل، منذ العام الماضي. كانت سارة قد تظاهرت بالحزن. وبعدها لم تعُد

تفكّر في الأمر، وضاعت المعلومة في تلافيف دماغها المرهق. مَن يسعه أن يلومها على ذلك، فلديها الكثير لتفكّر فيه. لو أنَّ الوقت سنح لها لتتوقف عند آلة تحضير القهوة، أو لتتسكّع في الأروقة أو لتجلس إلى مائدة الغداء -وهو ما لم تفعله البتّة- لخَطَرَتْ هذه المعلومة ببالها. لكن هذه هي حالها، تقتصر علاقاتها مع الآخرين على الأساسي، على المهني حصراً. وهذا ليس احتقاراً ولا عدوانيّة، وإنَّما بالأحرى ضيق وقت وانشغال دائم. لا تُفصح سارة شيئاً عن جوّها الخاص ولا تتطفّل على جوّ الآخرين. لكلّ شخص حديقته السرّيّة. في سياق آخر وحياة أخرى، كان سيسعها أن تنسج علاقات مع زملائها. ولربما اتخذت بعضاً منهم أصدقاءً. أمّا في حياتها هذه، فليس ثمة مكان إلّا للعمل. مع معاونيها؛ تبدو سارة دوماً لَبِقَة؛ لكنَّها لم تكن صديقة قطّ.

إيناس على شاكلتها. لا تُفصح ولا تَكشف عن خبايا حياتها. وهذه صفة تحترمها سارة. تجدُ فيها المحاميّة الشابة التي كانتها فيما مضى. إنَّها هي مَن اختارتها في أثناء مقابلات توظيف معاونين جدد. أظهرت إيناس دِقّةً واجتهاداً وكفاءة كبيرة. إنَّها الألمع في مجموعتها. قالت سارة يوماً، بأنَّها ستمضي قُدُماً، **إن أحسنت تطوير مهاراتها.**

في مثل هذه الظروف، كيف كان لها أن تعرف أنَّ إيناس ستصحب أمّها في ذلك اليوم بالتحديد لإجراء فحص في المشفى؟

على صفحة مفكّرتها، دونت سارة «موعد H». H ليس رجلاً وليس هنري في قسم المحاسبة، ولا حتى هيربرت المعاون الشاب والوسيم في الفريق المجاور، الشديد الشبه بذلك الممثل الأميركي الشهير. لا، H هو ببساطة الدكتور حداد، طبيب سارة المتخصّص بالأورام، وليس فيه شيء هوليوودي بكلّ أسف.

حين طلبت إيناس الأسبوع الفائت أن تأخذ بشكلٍ استثنائي نهارَ إجازة، وافقت سارة. دَوَّنَتْ المعلومة في ذهنها، ومن ثم نسيتها - منذ بعض الوقت، ثمة أشياء تغفل عنها، حالة التعب المتقدّمة لديها هي السبب بلا شك.

ولبرهة، سيلتقون في ردهة الانتظار في قسم الأورام بالمشفى الجامعي. سيرتسم تعبير المفاجأة على وجهيهما. سينعقد لسان سارة. ولكي تُظْهِرَ إيناس رباطة جأشها، سَتُعَرِّفها على والدتها.

هذه سارة كوهن، المساهِمَة التي أعمل معها.
تشرفتُ بمعرفتك يا سيدتي.

ستكون سارة مهذّبة ولن تدَع شيئاً من اضطرابها يظهر. لن تحتاج إيناس إلى زمن طويل لتفهم ما تفعله رئيستها هنا، في فترة بعد الظهر من أحد أيام العمل ضمن الأسبوع، في ممرٍّ لقسم الأورام، حاملةً تحت إبطها صوراً شعاعيّة. وفي لحظة، سينهار كل شيء:

العلاقة، الرجل المتزوج، الغداءات الغراميّة، المواعيد السرّيّة، اللقاءات المشبوهة. سيسقط قناع سارة.

وفي محاولة عابثة لتنقذ كرامتها، تدّعي أنَّها أخطأت الغرفة، وأنَّها جاءت لرؤية صديقة... تعرف أنَّ إيناس ليست مغفّلة. فهي سرعان ما ستركِّب قطع لعبة البازل. غيابها لمدة خمسة عشر يوماً الشهر الفائت الذي فاجأ جميع الناس، المواعيد الخارجيّة التي ترتّبها منذ بعض الوقت، سحنتها، نحولها، توعّكها في المحكمة، وكثير من القرائن التي تُتخذ كأدلّة ووثائق إثبات.

تودُّ سارة لو تختفي، تتفتت، تطير مثل الأبطال الخارقين ذوي القدرات المذهلة الذين يحبهم التوأم. فات الأوان.

فجأة تشعر أنَّها حمقاء لأنَّها ارتبكَت أمام معاونة شابة، كما لو أنَّها ضُبِطَت متلبّسة. مصابة بالسرطان، هذه ليست جريمة. ثم إنَّها غير مضطرة أن تبرر لإيناس، وليست مُلزَمَة بشيء حيالها أو حيال أيّ شخص.

وهي تتعجّل أن تكسر الصمت غير المريح الذي ساد، تُحَيِّي سارة المرأة الشابة وأمّها وتبتعد بخطى تعمّدت أن تكون واثقة. وبينما هي عائدة إلى سيارة الأجرة، يراودها سؤال: ماذا ستفعل إيناس بهذه المعلومة؟ هل ستبوح بها؟ حاولت سارة أن تعود أدراجها، وأن تلحق بها في الممرات وتتوسل إليها ألّا تقول شيئاً.

لكنَّها تقاوم ذلك. سيكون هذا إقرار بأنَّها ضعيفة، وستمنح إيناس سلطةً وهيمنةً عليها.

تتبنى استراتيجية أخرى مختلفة تماماً: غداً، عند وصولها إلى المكتب، ستستدعي إيناس وتقترح عليها أن تساعدها في قضيّة بيلغوفار، الملف الساخن في هذه اللحظة، للزبون الأهم في المكتب. إنَّها ترقية بالتأكيد، وعرضٌ مفاجئ لن يَسع المعاونة الشابّة أن ترفضهُ. ستتملّق سارة وستكون مَدينة لها. والأفضل من هذا: ستغدو تابعة لها. طريقة حاذقة لشراء سكوتها، تقول في سرّها، ولضمان ولائها. إيناس طموحة، وستفهم أنَّه ليس من مصلحتها أن تتكلم وتُعَرِّض نفسها لنقمة شريكتها.

تغادر سارة المشفى وهي مطمئنّة للخطّة التي أعدّتها. إنَّها شبه محكمة.

لا تغفل إلّا عن شيء واحد، مع أنَّها تعلَّمته خلال سنوات مهنتها: حين يسبح المرء بين أسماك القرش، من الأفضل ألّا ينزف دماً.

يتقدّم عملي ببطء
كغابةٍ تنمو بصمت.
مهمة قاسية هي مهمتي،
مهمة يجب ألّا يكدّرها شيء.

لكنَّني أشعر أنّي وحيدة،
حبيسة ورشتي.

أترك أحياناً أصابعي لرقصها الغريب،
وأحلم بحيوات لن أعيشها
وبأسفار ما ارتحلتها قط
وبوجوه لم أشاهدها.

لستُ سوى حلقة في سلسلة،
حلقة بائسة، لكن سيان،

يبدو لي أنَّ حياتي هنا،
في هذه الخيوط الثلاثة الممددة أمامي،
في هذا الشعر المتراقص
على أطراف أناملي.

سـميتا

قرية بادلابور، ولاية أوتار براديش، الهند.

غفا ناغاراجان. وهي ممدّدة بجانبه، تحبسُ سميتا أنفاسها. الساعة الأولى من رُقَادِه تظلُّ قلقة؛ تعرف أنَّ عليها الانتظار إذا لم ترغب في إيقاظه.

سترحل هذه الليلة. لقد قرّرت ذلك. أو الأصحّ، هذا ما قرَّرَتْه الحياة لها. لم تكن تفكّر أن تنفذ مشروعها بهذه السرعة، لكنَّ الفرصة سنحت لها، وكأنَّها هديّة من السماء: عانت زوجة البرهمي من خرّاج في سنها فاضطرت للذهاب إلى طبيب القرية في الصباح ذاته. كانت سميتا تفرّغ الحفرة النتنة التي يستخدمونها مرحاضاً، حين رأتها تغادر المنزل. لم يكن أمامها إلّا ثواني معدودة لتقرّر: فمثل هذه الفرصة قد لا تتكرّر. تسلَّلَت بحذر إلى غرفة الخدمة قرب المطبخ، رفعَت الجرّة المملوءة بمؤونة الأرز التي خبأ تحتها

الزوجان مدّخراتهما. تقول في سرّها إنَّ هذه ليست سرقة، إنَّها استرداد لحقّي منهما - استردادٌ فقط. ولم تأخذ إلّا المبلغ الممنوح للبرهمي بالضبط، دون أيّ روبيّة زيادة. إنَّ فكرة اختلاس أيّ قطعة نقديّة لأيّ شخص، ولو كان غنياً، يُخالف جميع مبادئها، لأنَّ الإله فيشنو سيغضب عندئذٍ. سميتا ليست لصّة، وكانت تفضّل أن تموت جوعاً على أن تسرق بيضة.

دسّت النقود تحت ثوبها وأسرعت بالعودة إلى منزلها. جمعت باضطراب بعض الأمتعة - الحدّ الأدنى، يجب ألّا تأخذ الكثير منها. فهي ولاليتا ضعيفتان، وعليهما ألّا تُثقلان الحمل. بعض الملابس وأطعمة، رز **وبابادوم**[1] من أجل السفر، أعدّتهم على عجل حين كان ناغاراجان في الحقول. تعرف سميتا أنَّه لن يدعهما تغادران. لم يتطرّقا ثانية إلى مشروعها، لكنَّها تعرف موقفه. ليس لديها خيار سوى انتظار الليل لتبدأ بتنفيذ خطّتها، مصليةً ومبتهلةً لئلا تلاحظ زوجة البرهمي شيئاً من الآن حتى ذلك الحين. عندما ستكتشف اختفاء المال، ستكون حياة سميتا في خطر.

تركع أمام المذبح الصغير المخصّص للإله فيشنو وتصلّي متضرّعةً إليه أن يحميها. تطلب منه أن يسهر عليها وعلى ابنتها خلال رحلتهما الطويلة، خلال الألفي كيلومتر التي سيجتازانها مشياً وفي

(1) بابادوم: خبز هندي من دقيق الفاصولياء، مقلي. (المترجم)

الحافلة وفي القطار، حتى مدينة تشيناي. رحلة متعِبَة وخطيرة وغير مضمونة النتائج. تشعر سميتا أن تياراً حاراً يخترقها، كأنَّها لم تعُد وحيدة فجأة، كأنَّ ملايين المنبوذين يركعون هناك، أمام المذبح الصغير ويصلّون معها. عندئذٍ تطلق نذراً للإله فيشنو: إذا نجحتا في الهرب وإذا لم تلاحظ زوجة البرهمي شيئاً وإذا لم يقبض عليهما الجاتيّون وإذا وصلتا إلى مدينة فاراناسي وإذا ركبتا القطار ووصلتا أخيراً إلى الجنوب وهما على قيد الحياة، عندئذٍ ستذهب لشكره في معبد تيروباتي. سمعت عن هذا المكان الأسطوري على جبل تيرومالا على بعد أقل من مئتي كيلومتر من تشيناي، باعتباره أعظم مكان للحج في العالم. يُقال إنَّ الملايين يحجّون إليه كلّ عام لتقديم القرابين للربّ فينكاتيسوارا، إله الجبل، وهو أحد تجليات الإله فيشنو المبجّلة. لن يتخلّى عنهما إلههما، الربّ الحامي، وهي تعرف ذلك. تمسك الصورة الصغيرة التي تصلّي أمامها، صورة ملوّنة لإله بأربعة أذرع، وتدسّها تحت ثوب الساري. هكذا سترافقها، ولن تعود تخشى شيئاً. فجأة، تخال أنَّ معطفاً غير مرئي نزل على كتفيها ودثّرها ليحميها من الخطر. وهي مغطاة هكذا، لم تعُد سميتا تقهر.

القرية الآن غارقة في الظلمة الدامسة. أصبح تنفّس ناغاراجان منتظماً، ومنخراه يطلقان شخيراً خفيفاً: ليست قرقرة عدوانيّة، وإنَّما هي الأخرى خرير عذب شبيه بخرخرة نمر صغير يحتضنه بطن أمّه. تشعر سميتا أنَّ قلبها ينقبض. أحبّت هذا الرجل واعتادت على وجوده المطمئن بجانبها. وتحقد عليه بسبب عدم شجاعته وبسبب

هذه القدرية المقيتة التي غلّفَ حياتهم بها. لطالما رغبت في الرحيل معه. توقفَت عن حبّه حين رفض أن يكافح. تقول في سرّها إنَّ الحبّ طائر بجناحين، يطير كما يحطُّ أحياناً برفرفة من جناحيه.

وبينما هي تزيح الغطاء، تشعر بالدوار. أليس جنوناً أن تبدأ هذه الرحلة؟ لو أنَّها فقط ليست متمرّدة وعنيدة، لو أنَّ هذه الفراشة لم تكن تخفق في بطنها، لاستطاعت عندئذٍ أن تصرف النظر عن هذه الرحلة وتقبَل بمصيرها مثل ناغاراجان وأخوتها الداليت. تعود للنوم وتترقّب طلوع الفجر، في سُبات دون حلم، كمَن ينتظر الموت.

لكن لم يعُد بوسعها التراجع. فقد أخذَت النقود من تحت جرّة البرهمي، ومن المستحيل العودة إلى الوراء. يجب أن تُلقي بنفسها، بكلّ قواها، في هذه الرحلة التي ستقودها بعيداً -أو ربما تقودها إلى أيّ مكان. ليس الموت هو ما يُرعبها، لا حتى العذاب- بالنسبة لها هي نفسها، لا تخاف من أي شيء، أو تخشى القليل جداً. لكنَّها من أجل لاليتا، تخاف من كلّ شيء.

ابنتي قويّة، تُردد في سرّها لتُطمئن نفسها. عَرَفَتْ ذلك منذ ولادتها. بينما كان الرجل الذي يعمل كقابلة في القرية يفحصها، بعد ولادتها مباشرة، عضّته الطفلة، فسخر منها - لم يترك الفم الصغير الخالي من الأسنان إلّا أثراً طفيفاً على يده. مع ذلك قال إنَّها ستكون ذات طبعٍ حاد. صغيرة الداليت هذه، في عمر الست

سنوات، وطولها يتجاوز بقليل علوّ مقعد صغير، قالت للبرهمي لا. نظرت إليه في عينيه، وسط الصف، وقالت له لا. لا يحتاج المرء أن يكون كريم النسب ليتمتع بالشجاعة. هذه الفكرة تعطي القوّة لسميتا. لا، لن تترك لاليتا في الطين، ولن تسلّمها إلى هذه الدارما اللعينة.

تقترب من ابنتها الغافية. تفكّر، نوم الأطفال معجزة. نوم لاليتا وديعٌ إلى درجة أنَّها تشعر بالذنب لأنَّها ستوقف جريانه. قسماتها هي استرخاءٌ وتناغمٌ رائعين. حين تنام، تبدو أصغر سنّاً، تعود طفلة رضيعة تقريباً. ودّت سميتا لو أنَّها لم تضطر إطلاقاً للقيام بإيقاظ ابنتها في منتصف الليل للفرار. لا تعرف الطفلة شيئاً عن مخططات أمّها؛ وهي تجهل أنَّها رأت والدها هذا المساء لآخر مرّة. تحسدها سميتا على هذه البراءة. لقد افتقدَت منذ زمن طويل الاستغراق في النوم. لم تعُد لياليها تقدّم لها شيئاً إلّا هاوية بلا قرار، وأحلاماً سوداء كالوحل الذي تكنسه. لعلّ الوضع سيكون بخلاف ذلك هناك؟

تنام لاليتا وهي تضمُّ دميتها الوحيدة، لعبة تلقّتها وهي في سنّ الخامسة، دمية صغيرة تمثّل «ملكة اللصوص»، تغطي شعرها بوشاح أحمر وعليه صورة فولان ديفي(*). غالباً ما تروي لها سميتا قصة

(*) فولان ديفي: امرأة هنديّة أجبرتها الظروف أن تصبح زعيمة عصابة ولقّبت بملكة اللصوص، وصلت إلى البرلمان بعد خروجها من السجن وكانت تدافع عن الفقراء. (المترجم)

تلك المرأة المتحدّرة من طبقة مهمّشة، تزوّجت في سنّ الحادية عشر، واشْتُهِرَت بأنّها تمرّدت على قدرها. وهي تقود عصابة مسلّحة، دافعت عن المظلومين وهاجمت الأثرياء الموسرين الذين يغتصبون الفتيات من الطبقات الأدنى على أرضهم. وهي تسلب الأغنياء وتعطي الفقراء، أصبحت بطلة الشعب واعتبرها البعض تجسيداً لدورغا آلهة الحرب. اتُّهِمَتْ بثمان وأربعين جريمة، واعْتُقِلت وسُجِنَت، ثم أُطْلِقَ سراحها وانتخبت نائبة في البرلمان، قبل أن يغتالها ثلاثة رجال مقنّعين وسط الشارع. تحبُّ لاليتا حبّاً جماً هذه الدمية، مثل جميع الفتيات الصغيرات هنا. وهي موجودة في الأسواق في كلّ مكان.

لاليتا.
استيقظي.
هيّا!

تخرج لاليتا من حلم يخصّها وحدها. ترمق أمَّها بنظرة يغشاها النعاس.

لا تُصدري ضجيجاً.
ارتدي ملابسك.
بسرعة.

تُساعدها سميتا لتجهّز نفسها. لا تُبدي الصغيرة أية مقاومة وهي تحدّق فيها بهيئة قلقة: ماذا دهاها في منتصف الليل؟

هذه مفاجأة، تهمس سميتا.

لم تُسعفها الشجاعة لتخبرها أنَّهما راحلتان ولن تعودا. إنَّها تذكرة ذهاب بلا إياب، ببساطة ذهابٌ من أجل حياة أفضل. عاهدت سميتا نفسها بأنَّه لن يكون هنالك جحيم قرية بادلابور الصغيرة ثانية أبداً. ما كانت لاليتا لتفهم، ولكانت بكتْ بالتأكيد ولربما قاومت. لا يمكن لسميتا أن تُعَرِّضَ مشروعها لخطر الإلغاء. لذلك تكذب. إنَّها ليست سوى كذبة صغيرة جداً، تقول في سرّها لترتاح، مجرّد تجميلٍ للواقع.

قبل المغادرة، تُلقي نظرة أخيرة على ناغاراجان؛ نمرها نائم بوداعة. بجانبه، في مكانها الذي تركته فارغاً، وضعت قصاصة ورق. ليست رسالة - فهي لا تعرف الكتابة. لقد نسخت ببساطة عنوان أقربائها في تشيناي. لعلّ رحيلهما سيمنح ناغاراجان الشجاعة التي تنقصه اليوم. لعله سيجد القوّة للحاق بهما هناك. مَن يدري.

بعد نظرة أخيرة إلى الكوخ، وإلى هذه الحياة التي تغادرها بلا أسف -أو بأسف طفيف جداً- تمسك سميتا يد ابنتها المتجمّدة، وتتلاشى في الحقول المظلمة.

جوليا

باليرمو، صقلية.

كانت جوليا تتوقَّع كل شيء إلّا هذا.

ها هي محتويات الدرج هنا، مبسوطة أمامها، في مكتب **البابا**: رسائل مأموري التنفيذ القضائي، إيعازاتٌ بالدفع، رسائلُ مطالبةٍ لا حصر لها. هوَت عليها الحقيقة كصفعة. تُعَبِّر عنها بكلمة: إفلاس. الورشة تنهار تحت وطأة الديون. بيت لانفريدي يتحطَّم.

لم يقُل الأب شيئاً من هذا الأمر إطلاقاً. لم يبُح به لأحد. حين أعادت التفكير فيه، ألمح والدها ذات مرَّة، مرَّة واحدة فقط، في سياق حديثه أنَّ تقليد **الكاسكاتورا** يتلاشى. قال إنَّ الصقليين لم يعودوا يحتفظون بشعرهم بعد أنْ جرفتهم سيول الحياة الحديثة. هذا هو الواقع، لم يعودوا يحتفظون بشيء اليوم؛ كلّ ما هو مستهلك

يرمونه ويشترون الجديد مكانه. تتذكَّر جوليا هذا النقاش في أثناء وجبة طعام عائليَّة على مائدة كبيرة: عمَّا قريب، أَكَّد، ستتلاشى المواد الأوَّليَّة. في الستينيات كانت ورشة لانفريدي تواجه خمسة عشر منافساً في باليرمو. جميعهم أغلقوا. وكان يفخر بأنه الباقي الأخير. كانت جوليا تعرف أنَّ الورشة تعاني من صعوبات، لكنها لم تتخيَّل إفلاسها الوشيك. في ذهنها، لم يكن هذا الأمر حتى احتمالاً وارداً.

مع ذلك يجب الاعتراف بالواقع. وبحسب الحسابات، هناك شهرُ عملٍ لا أكثر. ومن دون شعر، ستواجه العاملات بطالة تقنيَّة. ولن يعود بوسع الورشة أن تدفعَ لهنَّ. سيترتَّب إشهار الإفلاس، والإغلاق.

فتكت هذه الفكرة بجوليا. منذ عقود، تعيش أسرتها بكاملها على عائدات الورشة. تفكِّر بأمها المسنَّة التي لم تعُد قادرة على العمل، وبأديلا التي لم تزل في المرحلة الثانوية. أختها الكبرى فرنشيسكا هي ربّة منزل، تزوَّجت مبذِّراً يبدِّد راتبه في لعب القمار - ولم يكن من النادر أن يُرَمِّم لهم **البابا** حساباتهم نهاية الشهر. ماذا سيحلُّ بهم؟ منزل العائلة مرهونٌ عقاريّاً وجميع أملاكهم سيُحْجَزُ عليها. أما العاملات فسيجدن أنفسهنَّ دون عمل. هذا المجال فائق الخصوصيَّة، ولم يعد يوجد ورشة مثل ورشتهم في صقلية كفيلة بإعادة تشغيلهم. ماذا سيحلُّ بهؤلاء النسوة اللاتي تعتبرهن أخواتها واللاتي تقاسَمت معهن الكثير من الأشياء؟

تفكّر عندئذٍ بالبابا، هناك في المشفى، في الغيبوبة. تتجمّد فجأة. تعبُر صورة مرعبة مخيلتها: والدها على دراجة الفيسبا، في ذلك الصباح انطلق للقيام في جولته، والدها، محاصرٌ ويائسٌ، يسير بسرعة، يزيد سرعته أكثر فأكثر على الطريق المنحدر... تطرد هذه الفكرة اللعينة. لا، ما كان ليفعل ذلك، ما كان ليترك زوجته وبناته وعاملاته مفلسات ووحيدات... يتمتَّع بيترو لانفريدي بإحساس رفيع بالعزَّة، وليس من النوع الذي يفرُّ أمام المصيبة. لكنَّ جوليا تعرف أنّ مفخرته ونجاحه وجوهر حياته هي هذه الورشة الصغيرة في باليرمو التي أدارها أبوه من قبله والتي أسَّسها جدُّه. فهل كان سيتحمَّل رؤية عاملاته مصروفات من الخدمة، ومشروعه ينتهي وعمل حياته يذهب هباء؟... إنَّه لفظيع هذا الشَّك الذي ينخرها الآن كما تنخر الغرغرينا عضواً مجروحاً.

تقول جوليا في سرِّها: إنَّ القارب يغرق. الجميع على متنه، هي والماما وأخواتها والعاملات. إنَّه سفينة كوستا كونكورديا(*)، يفرّ القبطان، ويصبح الغرق محتماً. ليس ثمة زورق فجأة ولا عوامة، لا شيء للتشبث به.

تُخرجها ثرثرات زميلاتها في الصالة الرئيسة من أفكارها. وكما في كلّ صباح، يتأهَّبنَ لبدء العمل وهنَّ يتحدَّثن عن كلّ شيء وعن لا

(*) كوستا كونكورديا: سفينة رحلات سياحيّة إيطاليّة غرقت عام 2005. (المترجم)

شيء. لبرهة، حسدتهنَّ جوليا على خفتهنَّ - فهنَّ لا يعرفنَ بعد ما ينتظرهنَّ. تغلق الدرج كمَن يغلق تابوتاً، ببطء، وتُقفله بالمفتاح. لا يطاوعها قلبها أن تتحدث إليهنَّ اليوم، ولا أن تكذب عليهنَّ. لا يمكنها أن تبدأ العمل بجانبهنَّ، كأنَّ شيئاً لم يكن. لذلك تصعد ملتجئة إلى الأعلى، فوق السقف إلى المختبر. تجلس مواجهة البحر، كما كان يفعل أبوها. كان يمكنه قضاء ساعات على هذا النحو، وهو يتأمله. وكان يقول إنَّه مشهد لا يملّ منه أبداً. جوليا وحيدة الآن، والبحر يهزأ من حزنها.

عند الظهر، تلحق بكمال إلى المغارة التي اعتادا أن يلتقيا فيها. لا تتحدث عن همومها. إغراق حزنها في مسامات جسده، ذاك ما تنتظره. يبدو العالم لها أقلّ قسوة لبرهة. لا يقول كمال شيئاً حين يراها تبكي. يُقبّلها، ويكون لقبلاتهما طعم الماء المالح.

في المساء، تعود جوليا إلى منزل عائلتها. تدّعي أنها تعاني صداعاً، فتصعد إلى غرفتها وتغلق الباب عليها وتدفن رأسها في الأغطية.

في تلك الليلة، كان نومها حافلاً برؤى غريبة: ورشة والدها ممزّقة، المنزل خاوٍ، مُباع، أمّها مذعورة، العاملات في الشارع، خصلات **الكاسكاتورا** مبعثرة، ملقاة في البحر، بحرٌ كاملٌ من الشعر، هائج... تتقلّب جوليا وتتقلب، لم تعُد تريد التفكير بالأمر،

لكن الصور تعود بلا كلل، مثل حلم عنيد لا تفلح في التخلّص منه، مثل أسطوانة جهنميّة فَرَضَت عليها موسيقاها الجنائزيّة. وأخيراً يخلّصها الفجر من عذاباتها. تنهض ولديها شعور بأنّها لم تنَم، وينتابها الغثيان وتحسّ أنَّ رأسها في ملزمة. قدماها متجمّدتان، وطبلتا أذنيها تطنّان.

تجرجر ساقيها حتى الحمام. تأمل أن يُخرجها حمامٌ بالماء الساخن أو البارد من هذا الكابوس وأن يوقظ جسدها المنهك. تتقدم نحو المغطس، وتتوقف.

ثمة عنكبوت في قاعه.

إنه عنكبوت صغير، بجسد رشيق وأرجل ضامرة، كأنها تخريمات دانتيلا. لا بد أنَّه تسلق الأنابيب ووجد نفسه هنا، في شرك الحوض الأملس، في هذا المدى الأبيض الذي لا مَخرج منه. في اللحظات الأولى، اضطرّ أن يكافح وحاول أن يتسلّق الحواف الجانبيّة الباردة، لكن أرجله النحيلة تزحلقت وأعادته إلى قاع الحوض. وانتهى إلى أن يدرك أنّ الكفاح كان عابثاً، وها هو الآن ينتظر مصيره، ساكناً، مخرجٌ آخر. أي مخرج؟

عندئذٍ تجهش جوليا بالبكاء. ليس مشهد العنكبوت الأسود على طلاء الحوض الأبيض هو ما يبلبلها إلى هذا الحدّ -مع أنَّ هذا النوع

من الحشرات يُرعبها، ويُثير لديها نفوراً مباشراً، وذعراً لا يقهر- وإنَّما بالأحرى يقينها بأنَّها أسيرة فخّ كالعنكبوت، لن تخرج منه، ولن يأتي أحد ليخلصها.

تميل للعودة إلى سريرها وأن تدفن نفسها فيه وألّا تعود تخرج منه. الاختفاء، هو طموح عذب، وتقريباً جذّاب. لا تدري ماذا تفعل بكلّ هذا الحزن وهذه الموجة الهائجة التي تغمرها. ذات يوم، حين كانت طفلة، أوشكت على الغرق في أثناء رحلة استجمام عائليّة إلى سان فيتو لوكابو. البحر الهادئ في ذلك المكان بالعادة، اهتاج على نحوٍ غريب. جرفتها موجة أقوى من الأخريات، وخلال ثوان، انقطعت عن العالم وتخبَّطت في الزبد. امتلأ فمها بالرمل، لم تزل تتذكّر ذلك، وبحصَيات صغيرة ممزوجة بحصى أكبر. وبعد برهة وجيزة، تاهت بين السماء والأرض، وتلاشت حدود الواقع. جذبتها قوّة التيار نحو القاع، بكل ثقة كأنَّ أحداً أمسك قدمها. في هذه الحالة من اضطراب الوعي الذي يرافق السقوط والحوادث، في هذه اللحظات التي يجري فيها الواقع أسرع من التفكير، ظنّت أنَّها لن تعوم من جديد. وأنَّ الأمر انتهى بالنسبة لها. وقد استسلمت تقريباً. عندئذٍ أمسكَت بها يد أبيها وسحبتها نحو السطح. استعادت وعيها، مندهشة ومصدومة. حيّة.

من المؤسف أنَّ تلك الموجة لن تراها تعوم من جديد.

القدر يضرب آل لانفريدي، تفكّر جوليا، مثل الزلزال الذي هزَّ عدة مرّات وسط إيطاليا في المكان ذاته.

حادثة أبيهم هزّتهم بقسوة.
وموت الورشة سيجهز عليهم.

سـارة

مونتريال، كندا.

سارة تشعر بذلك: ثمّة شيء تغيّر في المكتب. شيء لا يمكن تحديده، واهٍ، لا يكاد يكون محسوساً، لكنَّه موجود.

إنَّها أولاً النظرة وتغيّر نبرة الصوت عندما يلقون عليها التحية، وطريقة مبالغة في الإلحاح لمعرفة أخبارها، أو بالعكس، عدم طرح أي سؤال. وبعد ذلك هنالك اللهجة المزعجة قليلاً وطريقة النظر إليها. البعض يُبدي ابتسامة متكلّفة. آخرون يهربون. لا شيء طبيعي.

تتساءل سارة في البداية عمّا يزعجهم. هل ثمة ما هو غير مناسب في هندامها، هل هنالك تفصيلٌ أهمَلَته؟ لكنها متأنِّقة كدأبها دوماً. تتذكّر، حين كانت طفلة، معلمة المدرسة التي جاءت ذات

يوم تحمل كيس قمامة. وضعته على المكتب بحركة طبيعية، قبل أن تتأكد أنها ألقت حقيبة يدها في الحاوية أثناء خروجها من منزلها. وهكذا جاءت إلى المدرسة دون أن تلاحظ شيئاً. بالتأكيد، انفجر الأطفال ضاحكين.

لكن لباس سارة اليوم مثالي - تتفحصه مليّاً في مرآة الزينة. وبمعزل عن قسماتها المتعبة وهذا الهُزال الذي نجحت في إخفائه، فإنَّ المرض غير بادٍ عليها. فلماذا إذاً هذا التحفظ الذي لم تعهده من قبل في علاقاتها مع الآخرين؟ ثمة مسافة غريبة نشأت بمكرٍ منذ بضعة أيام، مسافة ليست من صُنْعِها.

تكفي كلمة من سكرتيرتها، كلمة واحدة فقط. وتفهم سارة.

أنا آسفة، تقول لها بصوت خفيض، ونظرة متألمة. ولبرهة، لبرهة فقط، تتساءل سارة عمّا تتحدّث؛ هل وقعت كارثة، أو هجوم، ولم يُخْطِرْها أحد؟ أم هنالك عاصفة مفاجئة أو حادث أو وفاة؟ ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لتتأكد أنَّها هي المقصودة بكلامها. أجل، إنَّها هي بالتحديد، الضحيّة، الجريحة، المحزونة.

تبقى سارة فاغرة فاها.

ما دامت السكرتيرة تعرف، فهذا يعني أنَّ جميع الناس يعرفون.

تكلّمت إيناس. نقضت اتفاقهما بين ليلة وضحاها دون سابق

إنذار. كشفت سرّها. وانتشر الخبر في المكتب كما تنتشر شرارة في البارود. وامتدّ إلى الممرات، واجتاح المكاتب، وأذيع في قاعات الاجتماعات وفي الكافيتريات، ووصل إلى أعلى المستويات إلى جونسون.

إيناس التي وثقت بها سارة، إيناس التي اختارتها بنفسها ووظّفتها، إيناس التي تبتسم لها كلَّ صباح والتي تتقاسم معها ملفاتها، إيناس التي أخذتها تحت جناحيها، إيناس، أجل، إيناس طعنتها بأكثر الأساليب دناءة.

حتى أنتَ يا بروتوس.

باحَت بسرّها إلى أكثر شخص يمكن أن ينشره: غاري كورست، الأشدّ غيرة، الأكثر طموحاً، والمفرط في بغضه للنساء من بين المساهمين، الذي يضمر كراهية شديدة لسارة منذ مجيئها. تصرَّفَت بدافع **مصلحة المكتب**، ستدافع الخائنة عن نفسها بهيئة تتظاهر بالحزن، قبل أن تضيف: **آسفة**. لا تصدق سارة تأسّفها. عليها أن تلزم جانب الحذر. إيناس داهية، **سياسيّة**، بحسب التعبير الشائع، وهي كلمة أنيقة تعني: **منافقة**، أي: **من يُساير الأقوياء**. كلمة تعني: **من لا تتورع عن الخداع**. إيناس ستمضي قدماً، أجل، قالت لها سارة يوماً. **إن أحسنت تطوير مهاراتها**.

ذهبَت لرؤية كورست، **بدافع من ضميرها**، حتى تبوح له أنّ

سارة ترتكب **أخطاء** في الملف الذي تديرانه - ملف بيلغوفار، وهو أمر مالي حاسم بالنسبة إلى مستقبل المكتب. هذه **الهفوات** ليست **مستهجنة** على أيّة حال **بالنظر إلى حالتها**.

هفوات لم تقع فيها سارة قط. بالتأكيد، منذ بداية العلاج، تعاني صعوبة كبيرة في التركيز، وتضاءلت ديمومة انتباهها، وتنسى أحياناً بعض التفاصيل، اسماً وعبارة في سياق محادثة، لكن ذلك لا يؤثر على نوعيّة عملها على أية حال. لا تُخلف موعداً ولا تُفَوِّتُ اجتماعاً. تشعرُ داخلياً بالوهن، لكنَّها تضاعف جهودها لئلا تُظْهِرَ شيئاً منه. لم ترتكب **هفوات وأخطاء**. تعرف إيناس ذلك.

إذاً، لماذا؟ إذاً لماذا تغدر بها؟ تفهم سارة ذلك فيما بعد، وهذه الفكرة ترعبها: إيناس تريد مكانها. منصبها كمساهِمَة. ففرص الترقِيَة في المكتب ضئيلة، ولا يُسْمَحُ بسهولة لصغار السنّ بالترقي. وحين يضعف مساهمٌ، فهذا بابٌ يُفتح، وفرصةٌ لا تعوّض.

يجد كورست في ذلك المصلحة ذاتها: فقد ظلَّ على الدوام يغار من علاقة الثقة التي تربط سارة بجونسون. هي بلا شك المديرة التنفيذيّة المقبلة التي سيعيّنها. إلّا إذا أعاق شيء ما صعودها... سيرى غاري كورست أنَّها خليقة بهذا المقعد في أعلى التسلسل الهرمي الإداري. مرضٌ طويل الأمد، مرضٌ معيبٌ وخبيثٌ يصيبك ويضعفك، مرض يمكن أن يذهب ويعود، هو سلاحٌ مثالي للنيل من العدو. وحتى لن يضطر كورست لتلويث يديه بالدماء؛ فالجريمة

كاملة. كما في لعبة الشطرنج، يسقط بيدق، فيتقدّم الجميع مربعاً. وذلك البيدق هو سارة.

ستكفي كلمة، كلمة واحدة فقط في أذنٍ غير حذرة. وتقع الواقعة.

أصبح الأمر رسميّاً الآن، وجميع الناس يعرفونه: سارة كوهن مريضة.

مريضة، بعبارة أخرى: ضعيفة، هشّة، وقد تُهْمِلُ ملفاً أو قد لا تركز كليّاً على قضيّة، وقد تأخذ إجازة طويلة.

مريضة، بعبارة أخرى: غير موثوقة، ولا يمكن الاعتماد عليها. والأسوأ، يمكن أن تموت خلال شهر أو عام، من يدري؟ تسمع سارة هذه العبارة ذات يوم في الممر، هذه الجملة المخيفة، يتهامسون بها: أجل، من يدري؟

مريضة، يعني أسوأ من حامل. على الأقل، يعرفون متى ينتهي الحمل. أمّا السرطان، فهو ضال، يمكن أن يعود. إنَّه موجود، مثل سيف ديموقليس المسلّط فوق رأسك، مثل سحابة سوداء تتبعكم في كلّ مكان.

تعرف سارة أنّ على المحامي أن يكون لامعاً، كفؤاً، مبادراً. يجب أن يكون مُطَمْئِناً ومُقْنِعاً وجذّاباً. في مكتبِ محاماة كبير

كمكتب **جونسون ولوكوود**، الأمر يتعلّق بالملايين. تتخيّل الأسئلة التي لا بد للجميع أن يطرحوها. هل يمكننا الاستمرار في المراهنة عليها؟ وأن نعهَد لها بملفّات مهمة وقضايا تستغرق سنوات؟ وهل ستكون حيّة عندما يحين موعد مرافعاتها؟

هل لا تزال قادرة على المواظبة في عملها وأن تمنحه الليالي وأيام العطل الأسبوعيّة؟ وهل لديها القوّة لذلك؟

استدعاها جونسون إلى مكتبه في الأعلى. يبدو مستاءً. ودَّ لو أنَّها جاءت بنفسها لتتحدث إليه وتُعلِمَه بالخبر. ربطتها على الدوام علاقة ثقة، فلماذا لم تقل شيئاً؟ تلاحظ سارة للمرّة الأولى أنَّ نبرة صوته تُكدِّرها. هذه الهيئة المتسامِحَة بتعجرُف، والأبويّة الزائفة التي يُبديها نحوها، والتي إذا أمعَنَت التفكير أبداها دوماً نحوها، تتقيؤها. ودّت لو تجيبه إنَّ الأمر يتعلق بجسدها، بصحتها، وأنَّه لا شيء يُلزِمها بإطلاعه على ذلك. وإذا كان لا يزال لديها فسحة من الحريّة، هو ذاك، فهذا ما لن تتحدّث عنه. كان سيَسعها أن تقول تباً له ولهيئته القلقة زيفاً، فهي تعرف حقَّ المعرفة ما يُزعجه: ليس أن يعرف كيف حالها، ولا كيف تشعر، ولا حتى إن كانت ستظلُّ موجودة بعد عام، لا، كلّ ما يهمه هو أن يعرف إن كان سيَسَعها، أجل يسعها أن تعالج ملفّاته اللعينة كما في السابق. وباختصار: هل ستكون مؤهلة.

بالتأكيد، لا تقول سارة شيئاً من كلّ هذا. تحافظ على رباطة

جأشها. وبثقة، تحاول أن تُطمئن جونسون: لا، لن تأخذ إجازة طويلة. وحتى لن تتغيَّب. ستكون موجودة، مريضة ربما، لكن موجودة، ستُنجز أعمالها وتتابع ملفاتها.

وهو يصغي إلى كلامها، يراودها شعور مفاجئ، بأنَّها في حرم محكمة، بإزاء قضيّة غريبة بدأتها للتو: قضيتها. كأنَّها أمام قاضٍ، تحشد الحجج والدلائل لتدعم دفاعها. لكن لماذا؟! هل هي مذنبة بشيء ما؟! هل ارتكبت خطأ؟ وممَّ عليها أن تبرّئ نفسها؟

وهي عائدة إلى مكتبها، تحاول أن تقنع نفسها بأنَّ شيئاً لن يتغير. لا طائل من ذلك. فهي تعرف في قرارة نفسها أنّ جونسون بدأ في دراسة قضيّتها.

يخطر ببالها عندئذٍ أنَّ العدو ربما ليس هو مَن كانت تظنّه.

سـميتا

أوتار براديش، الهند.

تهرب سميتا، مُمْسِكَةً يد ابنتها الصغيرة بيدها، عبر الريف النائم. لم يسنح لها الوقت لتتكلم وتشرح لابنتها أنَّها ستتذكّر طوال حياتها هذه اللحظة باعتبارها اللحظة التي اختارتها لتغيير اتجاه أقدارهما. تركضان بلا ضجيج، حتى لا يراهما الجات ولا يسمعونهما. حين يستيقظون، ستكونان قد ابتعدتا، كما تأمَل سميتا. يجب ألّا تضيعان ثانية واحدة.

أسرعي!

يجب عليهما أن تصلا إلى الطريق الرئيس. أخْفَتْ هناك سميتا درّاجتها، في دغل بالقرب من حفرة، كما أخفَت علبة صغيرة تحتوي على مؤونتها من الأطعمة. تصلّي لئلا يسرقها أحد. سيترتّب عليهما

أن تجتازا بضعة كيلومترات قبل أن تصلا إلى طريق هيغوايا الوطني 56، حيث ستستقلّان حافلة متّجهة إلى فاراناسي، إحدى الحافلات الحكوميّة الشهيرة الملوّنة بالأخضر والأبيض، التي يمكن للمرء ركوبها مقابل بضع روبيّات. الراحة فيها قليلة والأمان هش -في الليل، يتناول سائقوها البانغ[1]- لكنَّ سعر التذاكر يتحدّى أيّة منافسة. أقل من مئة كيلومتر تفصلهما عن المدينة المقدّسة. ومن هناك يجب أن تجدا محطّة، وأن تستقلا القطار إلى تشيناي.

مكتبة

تبزغ أشعّة الفجر الأولى. وها هما على الطريق الرئيس. والشاحنات تسير بسرعة مصدرة ضجيجاً مرعباً. ترتعش لاليتا كورقة، وتشعر سميتا أنَّها خائفة، فالصغيرة لم تغامر من قبل بالابتعاد عن القرية إلى هذا الحدّ. وما وراء هذا الطريق، هناك المجهول، العالم، الخطر.

ترفع سميتا الأغصان التي تغطي دراجتها: لم تزل هناك. لكن العلبة التي أعدّتها ترقد أبعد قليلاً في الحفرة وهي ممزقة - كلب أو جرذان جائعة استولوا عليها. لم يتبقَّ منها شيء، أو القليل جداً... يجب أن تتابعا ببطنٍ فارغ. ليس ثمة خيار آخر. ليس لدى سميتا الوقت للعثور على ما يؤكل الآن. سترفع زوجة البرهمي جرّة الأرز قبل الذهاب إلى السوق. هل ستشكّ بها على الفور؟ هل ستُخبر

(1) البانغ: شراب معدّ من القنب، له تأثير مثير للنشوة.

زوجها؟ هل سيجدّون في البحث عنها؟ لا بد أنَّ ناغاراجان لاحظَ الآن غيابهما. لا، ليس لديهما الوقت للعثور على طعام، يجب المضيّ قدماً. قارورة الماء سليمة - سيكون لديهما على الأقل هذه القارورة بدل الإفطار.

تضع سميتا ابنتها لاليتا على السرج الخلفي وتركب دراجتها. تطوق الفتاة الصغيرة وركي أمّها بذراعيها وتتشبّث بها مثل ضبّ مذعور - تلك السحالي الخضراء التي تكثر في المنازل وتثير اهتمام الأطفال. لا تريد سميتا أن تُظْهِر لها اضطرابها. **شاحنات تاتا**[1] الضخمة، الكثيرة العدد على الطريق رغم ضيقه، تتجاوزهما بضجيج مُصِمٍّ. لا يوجد أيّ نظام هنا، فالأولوية للأضخم. تهتزّ سميتا وتتشبّث بالمقود حتى لا تسقط - فالسقوط سيكون مريعاً بالتأكيد. بعض الجهد أيضاً وتصلان إلى الطريق الوطني السريع الذي يربط لوكناو بفاراناسي.

ها هما تجلسان على حافة الطريق. تمسح سميتا وجهها ووجه ابنتها بقطعة قماش. إنَّهما معفّرتان بالغبار. منذ ساعتين وهما تنتظران الحافلة. هل ستمرّ اليوم؟ المواعيد هنا متقلّبة، إن لم تكن افتراضيّة. وحين ظهرت المركبة أخيراً، هرع جمعٌ غفيرٌ نحو أبوابها. الحافلة ممتلئة الآن. ومن الصعب الصعود إليها. يُفضّل البعض

(1) شاحنات تاتا: شاحنات من نوع تاتا موتورز الهندي.

الصعود إلى سطحها وسيسافرون في الهواء الطلق متشبثين بالعوارض الجانبيّة. تمسك سميتا يد لاليتا بقوة وتنجح بعد جهد في رفعها إلى داخل الحافلة. تجدُ نصف مقعد لكلتيهما، في الصدر تماماً، على المقعد الخلفي، وهذا سيفي بالغرض. تحاول الآن أن تعود أدراجها لتستعيد الدراجة التي تركتها في الخارج. مشروع خطير. فالعشرات من الركاب يهرعون إلى الممرّ، البعض ليس لديهم مكان يجلسون فيه، والبعض الآخر يشتمون بخبث. امرأة جلبت معها دجاجاً، وهو ما أثار غضب أحد جيرانها. تبدأ لاليتا بالصراخ وهي تشير إلى الدراجة عبر النافذة: امتطاها رجل وابتعد مسرعاً. يشحب وجه سميتا: أن تَجِدَّ في إثره، فهذا يعني أن تجازف برؤية الحافلة تنطلق من دونها. يشغّل السائق المركبة، ويهدر المحرّك الآن. يجب عليها أن تعود إلى مكانها، على مضض منها، وهي تنظر إلى اختفاء قطعة الخردة المستعملة التي اشترتها قديماً، وكانت تخطّط لبيعها من أجل الحصول على طعام.

تنطلق الحافلة. تلصق لاليتا وجهها على الزجاج الخلفي لئلا يفوتها شيء من الرحلة. تهتاج فجأة.

بابا!

تنتفض سميتا وتلتفت: يظهر ناغاراجان على الطريق. أخذ يركض نحو الحافلة التي انطلقت. تشعر سميتا أنّ قواها تخور.

زوجها يركض نحوهما، ووجه موسوم بتعبير لا يمكن تحديده: أسفٌ، اضطرابٌ، حنانٌ؟ أم غضبٌ؟ وسرعان ما تباعدت المسافة بينه وبين الحافلة التي تتزايد سرعتها. تشرع لاليتا بالبكاء، وتضرب النافذة وتلتفت نحو أمّها متوسِّلة مساعدته.

ماما، قولي لهم أن يتوقفوا.

تعرف سميتا أنَّ إيقاف الحافلة غير ممكن. لن يسعها أن تشقّ طريقها للوصول إلى السائق. وحتى لو نجحت في الوصول إليه، فإنَّه سيرفض التمهّل والتوقف - أو سيطلب منهما النزول. لذلك لا يمكنها أن تجازف. يتقلّص ظلُّ ناغاراجان، وعمّا قريب لن يكون سوى نقطة صغيرة خلفهما، ومع ذلك، يستبسل ويتابع جريه العابث. تنتحب لاليتا. انتهى أبوها إلى الاختفاء من مجال رؤيتهما. وربما إلى الأبد. تُواري الطفلة وجهها في عنق أمها.

لا تبكي.
سيلحق بنا إلى هناك.

صوت سميتا يريد طمأنتها، كما لو أنَّها هي نفسها تريد أن تقتنع بهذه الفرضيّة. مع ذلك، لا شيء مؤكّد. تتساءل عندئذٍ عمّا سيترتّب عليها أن تتخلّى عنه أيضاً قبل الوصول إلى نهاية الرحلة. وهي تواسي ابنتها الباكية، تلمس صورة فيشنو تحت ثوب الساري. فتقول

في سرّها، كلّ شيء سيسير على ما يرام، لكي تُطَمْئن نفسها. طريقهما محفوفة بالمخاطر، لكنَّ فيشنو موجود، قريب جداً.

نامت لاليتا. جفّت الدموع على وجهها مخلِّفةً آثاراً مائلة للبياض. تتأمل سميتا المناظر الطبيعيّة تتتالى عبر الزجاج المتّسخ. على حافة الطريق، أكواخ مؤقتة، حقول، محطات وقود، مدرسة، هياكل شاحنات، كراسي تحت شجرة معمّرة، سوق متنقل، باعة يجلسون على الأرض، مؤجر دراجات ناريّة أحدث طراز، بحيرة، مستودعات، معبد مهدّم، لوحات إعلانات، نساء بأثواب الساري يضعنَ سلالاً على رؤوسهنَّ، جرار زراعي. تقول في سرّها إنَّ الهند برمّتها موجودة هناك، على حافة هذه الطريق، في سديمٍ بلا اسم يمتزج فيه بلا تمييز القديم والحديث، النقي والقذر، الدنيوي والمقدّس.

بعد ثلاث ساعات من التأخير -شاحنة مغروزة في الطين أعاقت حركة المرور- تصلُ الحافلة إلى محطّة فاراناسي. تتقيأ على الفور حمولتها من الرجال والنساء والأطفال والحقائب والدجاج، وكلّ ما نجح الركاب في حشره فوقها وفي أسفلها وفيما بينهم. وحتى يمكن مشاهدة عنزة يُنْزِلها رجلٌ عن السطح على مرأى من عيني لاليتا المندهشتين، التي تتساءل عن طريقة وصول الجدي إلى هناك.

وفور نزولهما، تلقَّفت زحمة المدينة سميتا وابنتها. في كلّ

مكان حافلات وسيارات وعربات وشاحنات تغصُّ بالحجاج، يسيرون بسرعة نحو الغانج والمعبد الذهبي. فاراناسي هي واحدة من أقدم مدن العالم. يأتي إليها الناس للتطهّر والتأمّل وللزواج، وأيضاً لينثروا رفاة أقربائهم وأحياناً ليموتوا فيها. على المصاطب، تلك الضفاف المغطّاة بالدرجات المنحدرة نحو **غانجا ماما** كما يسمّونها هنا، يتحاذى الموت والحياة، النهار والليل، في رقصة باليه أبديّة.

لم يسبق للاليتا أن رأت شيئاً شبيهاً بهذا على الإطلاق. غالباً ما حدّثتها أمُّها عن هذه المدينة باعتبارها مقصداً للحج اصطحبها إليه والداها حين كانت طفلة. كانوا قد أنجزوا سويّة البانشاتيرثي ياترا، وهي رحلة بحرية تتضمّن الاستحمام في خمسة أماكن من النهر المقدّس وفق نظام دقيق. وأنهوا زيارتهم بالتبريكات في المعبد الذهبي كما يقتضي العُرف. كانت سميتا تتبع أبويها وأخوتها وتنقاد لهم. استخلصت من الرحلة انطباعاً قويّاً وذكرى دائمة. مصطبة مانيكارنيكا، إحدى الأماكن المخصّصة لحرق الموتى، أثّرت فيها بشكل خاص. ولم تزل تتذكر اشتعال المحرقة التي يرقد فوقها جسد امرأة عجوز. وبحسب التقليد، غسّلوها في نهر الغانج، ثم جففوها قبل أن يحرقونها. لقد شاهدت سميتا بذُعر ألسنة اللهب الأولى تلامس الجسد، ثم يلتهمه الأجيج الجهنمي بشراهة. وعلى نحوٍ غريب، لم يكن الحزن يتبدّى على أقرباء الميتة، بل كانوا يظهرون ابتهاجهم تقريباً بخلاص روح جدّتهم، وتحرّرها. كان البعض يتحدّث والبعض الآخر يلعب الورق، وفريق ثالث يضحك. ثمة

أشخاص من الداليت يعملون هناك باستمرار، ليلاً ونهاراً - فحرق الأموات مهمّة قذرة بامتياز مخصَّصة بشكل طبيعي لهم. كان عليهم أيضاً التزوّد بأطنان من الخشب الضروري للمحارق، ينقلونها في قارب حتى المصاطب. تتذكّر سميتا جبالاً من الحطب الضخم الذي ينتظر دوره على جوانب الأرصفة. على بعد بضعة أمتار هناك، ثمة أبقار تشرب من ماء النهر، غير مبالية بالمشاهد التي تُمَثَّلُ على ضفتيه. وأبعد من ذلك بقليل، رجال ونساء وأطفال يؤدّون طقوس الاغتسال - يقتضي التقليد أن يغطسوا في الغانج من الرأس حتى أسفل القدمين، لكي يتطهروا فيه. وكان آخرون يقيمون حفلات زفاف، مبتهجين ومتألقين، وهم يرتّلون أناشيد دينيّة أو دنيويّة. البعض يغسلون فيه آنيتهم، أو حتى الملابس. وفي بعض الأماكن، كان الماء أسود، ويوجد على سطحه أيضاً أزهارٌ عائمة وقناديل، مقدّمة من الحجاج، كما توجد هياكل عظميّة لحيوانات متفسّخة، إن لم تكن عظاماً بشريّة - فبعد الحرق، كان الرماد يُنْثر في النهر بحسب الطقوس، لكن الكثير من الأسر ليس لديها من الموارد ما يكفي لتحويل أجساد موتاها إلى رماد كامل فتلقيها فيه نصف محترقة، وأحياناً تلقي الجسد كلّه.

لا أحد اليوم يقود سميتا، وليس لديها يدٌ مُطَمْئِنَة تتشبّث بها، باستثناء يد ابنتها التي تتبعها. إنَّهما وحيدتان وسط حشدٍ مجهولٍ من الحجاج، تتلمّسان طريقهما. تقع محطة القطارات في مركز المدينة، بعيداً عن المكان الذي أنزلتهما الحافلة فيه.

في الشوارع، تتأمّل لاليتا وهي مذهولة واجهات المتاجر تعرض أشياء في غاية الغرابة. هنا، مكنسة كهربائيّة، وهناك عصّارة حمضيّات، وهناك في الأسفل أيضاً صالة حمام، ومغسلة، ونموذج لدورات المياه. لم يسبق للاليتا أن شاهدت ذلك من قبل. تتنهّد سميتا، كانت تريد التقدّم بسرعة أكبر، لكنَّ فضول الطفلة يبطئهما. تصادفان موكباً من التلاميذ بزيّهم الرمادي الموحّد، يمسكون بعضهم بأيدي بعض. تُفَاجَأ سميتا بنظرة ابنتها الحاسدة التي استقرّت عليهم.

تلوّح أخيراً محطة فاراناسي-كانْتْ. على ساحتها، ينتشر حشد متحمّس - إنَّها واحدة من أكثر محطات البلد ازدحاماً. في داخل الردهة، مدٌّ بشريٌّ يضغط على كوى التذاكر. في كلّ مكان، رجال ونساء وأطفال يقفون أو يجلسون أو يتمدّدون، ينتظرون لساعات، وأحياناً أياماً بكاملها.

تحاول سميتا أن تشقَّ طريقها متجنّبةً صائدي الزبائن. فهؤلاء يستغلّون الفوضى وسذاجة السيّاح ليسلبوهم بضع روبيات مقابل نصائح لا تغني ولا تُسْمِن من جوع. تأخذ سميتا مكانها في أحد أرتال الانتظار الأربعة - يتضمّن كلّ واحد منها مئة شخص على الأقل، وعليهما أن تتحليا بالصبر. تُبْدي لاليتا علائم التعب، فقد سافرتا طيلة النهار، بمعدةٍ خاوية، لتقطعا مئة كيلومتر. وما زال الأقسى ينتظرهما، تعرف سميتا ذلك.

خيّم الليل حين وصلت أخيراً إلى كوّة التذاكر. يُبدي موظّف السكك الحديد هيئة مندهشة حين تطلب تذكرتين إلى تشيناي، في اليوم ذاته. التذاكر تُحجز مسبقاً قبل أيام عديدة، يُجيبها، وفي الدقيقة الأخيرة تكون القطارات دوماً محجوزة بالكامل. ألم تُنجز حجزها؟ . . . تشعر سميتا أنَّ قواها تخور حين تراودها فكرة قضاء الليل هنا، في المدينة المقدّسة، وهي لا تعرف أحداً فيها. لا تكاد النقود المسروقة من البرهمي تكفي لتذكرتين في الدرجة الثالثة، فضلاً عن ثمن طعامهما، ومن المستحيل دفع أجرة نُزُلٍ، أو حتى عنبر نوم. تصرُّ سميتا، يجب أن تغادر الآن، بأقصى سرعة. ولا تتردّد بإضافة بعض القطع النقديّة التي وضعتها جانباً من أجل طعامهما. يتفرّس فيها الموظف بهيئة متردّدة، مُبَرْطِماً بشيء ما من بين أسنانه الصفراء. يختفي ويعود بتذكرتين في «عربة النوم»، وهي الدرجة الأقل كلفة في قطار اليوم التالي. لا يستطيع أن يقدّم أكثر من هذا. في وقت لاحق، ستعلم سميتا أنّ هذه التذاكر بيعت لجميع أولئك الذين يطلبونها - ولا يوجد قيود على عدد الركاب الذين يصعدون إلى عربة هذه الدرجة، وهي في الواقع مكتظّة على الدوام. استغلَّ الموظف سذاجتها ليختلس منها روبيّات، ستعلم ذلك بعد فوات الأوان.

لاليتا المنهكة غفتْ بين ذراعيها. تشقُّ سميتا طريقها بصعوبة بحثاً عن مكان تجلس فيه. في كلّ مكان على الأرصفة وداخل المحطّة يتأهّب الناس لقضاء الليل. يجلسون ويتمدّدون وينامون - بالنسبة إلى الأوفر حظاً. تجلس سميتا في ركن، على الأرض

مباشرة، غير بعيدة عن امرأة ترتدي الأبيض، يحيط بها طفلان صغيران. تستيقظ لاليتا. إنَّها جائعة. تُخرج سميتا زجاجة الماء التي لم يتبقّ إلّا القليل في قعرها. وليس لديها أيّ شيء آخر لأجل هذا المساء. تشرع الطفلة الصغيرة في البكاء.

ليس بعيداً عنهما، تناول المرأة المرتدية الأبيض بسكويتاً جافاً لطفليها. تتأملُ سميتا والطفلة الصغيرة الباكية بين ذراعيها. تقتربُ منهما وتقترحُ عليهما أن تشارِكُنها وجبتها. ترفع سميتا بصرها نحوها وهي مندهشة؛ لم تعتَد أن يعرض أحد عليها المساعدة، ولم تركن قط للاستجداء. ورغم ظروفها، عاشت دوماً بكبرياء. لو كان الأمر يتعلق بها، لرفضتْ بالتأكيد، لكنَّ لاليتا لم تزل هشّة ورقيقة، ولن تتحمّل السفر دون طعام. تُمْسِك سميتا الموزة والبسكويت اللذين قدّمتهما المرأة المرتدية الأبيض وتشكرها. تلتهمُ لاليتا الطعام بشراهة. اشترت المرأة من بائع جوال شاياً بالزنجبيل وعرضَت عليها بضع رشفات منه فقبلت سميتا عن طيب خاطر. ينعشها الشاي الساخن بطعمه اللاذع. تبدأ المرأة -وتُدعى لاكشماما- الحديث. تريد أن تعرف أين تذهبان هكذا وحيدتين. أليس لديهما زوج أو أب أو أخ ليرافقهما؟ تجيبها سميتا أنَّهما ذاهبتان إلى تشيناي - زوجها ينتظرهما هناك، تكذب. لاكشماما وولداها مسافران إلى فراندافان، وهي مدينة صغيرة جنوب دلهي، معروفة بأنَّها **مدينة الأرامل البيض**. تبوح بأنَّها فقدت زوجها منذ بضعة أشهر، توفي بسبب الأنفلونزا. بعد موته، طردتها أسرته التي كانت تعيش عندها. وتستحضر

لاكشماما بمرارة مصير الأرامل المشؤوم هنا. إنهنَّ ملعونات، ويُعتبرن كمجرمات لأنهن لم يستطِعن المحافظة على أرواح أزواجهن المتوفين. وحتى يُتَّهمن أحياناً أنَّهن تسبَّبن، من خلال السحر، بمرض أو موت أزواجهنَّ. لا يحقُّ لهنَّ الحصول على أيّ تأمين إذا توفي الزوج بحادث، ولا أيّ نفقة إذا قُتل في الحرب. مجرّد رؤيتهنَّ تجلب النحس والالتقاء ولو بظلهنَّ هو نذير شؤم. يمنعونهنَّ من حضور الأعراس والأعياد ويرغمونهنَّ على الاختباء وعلى ارتداء ثياب الحداد البيضاء، وعلى التكفير عن ذنبهنَّ. وغالباً تلقيهم أسرهنَّ في الشارع. تستحضر لاكشماما برعب تقليد **الساتي**(*) القاسي الذي كان يحكم عليهنَّ أن يضحين بأنفسهنَّ على المحرقة الجنائزيّة لأزواجهنَّ. ومن يرفضهنَّ كنَّ يُفْصَلْن من الجماعة ويتعرّضن للضرب والإهانة وأحياناً تدفعهنَّ عائلات أزواجهنَّ أو حتى أبنائهنَّ بالقوّة إلى النار، لأنَّهم يجدون هذه الطريقة إحدى وسائل منعهنَّ من اقتسام الميراث. وقبل رميهنَّ في الشارع، يحكمون على الأرامل بنزع مجوهراتهنَّ وحلق جماجمهنَّ، لئلا يمارسن أيّ إغراء للرجال - يُحْظَر عليهنَّ الزواج مرّة ثانية، أياً كان عمرهنَّ. وفي الأرياف التي تُزَوج الفتيات وهنَّ أطفال، بعضهنَّ يصبحن أرامل في سن الخمس سنوات، وبناء عليه يحكم عليهنَّ أن يعشنَ متسوّلات.

(*) الساتي: تقليد يفرض على زوجة الميت أن تحرق نفسها معه. (المترجم)

«هذه هي الحال، عندما لا يعود هنالك زوج، لا يعود هنالك شيء» تتحسّر. تعرف سميتا ذلك: ليس لدى الزوجة ملكيّة خاصة، وتعود ملكية كلّ شيء لزوجها. حيث تتزوجه، تعطيه كل شيء. وحين تفقده، تكفُّ عن الوجود. لم تعد لاكشماما تملك شيئاً، ما عدا قطعة حُليّ نجحَت في إخفائها تحت فستان الساري، كان والداها قد أهداها إليها في زفافها. تتذكر ذلك اليوم البهيج حين اقتادتها أسرتها بفرح، وهي مزيّنة بمجوهرات باهظة الثمن، إلى المعبد للاحتفال بالزفاف. دخلت إلى الزواج بأبهة؛ وخرجت منه بفقر مدقع. تعترف أنَّها كانت لتفضّل لو أنَّ زوجها هجرها أو طلّقها، على الأقل ما كان المجتمع لينفيها إلى طبقة المنبوذين، وربما لأظهر أقرباؤها شيئاً من الشفقة، وعندها يُبْدون لها فقط الاحتقار والعدائيّة. كانت تفضّل لو أنَّها وُلِدَت على شكل بقرة، لكانتْ عندئذٍ محترمة. لم تتجرّأ سميتا على إخبارها بأنَّها اختارَت أن تترك زوجها، أن تهجر قريتها وجميع مَن كانت تعرفهم. في هذه اللحظة، وهي تصغي إلى لاكشماما، تتساءل إن لم تكن ارتكبَت خطأً مرعباً. تعترف الأرملة الشابة أنَّها أرادت قتل نفسها، لكنَّها عدلت في النهاية عن هذه الفكرة، خشية أن تقتل أسرة زوجها طفليها لتحتفظ بالميراث، وهذا ما يحدث أحياناً. وفَضَّلت اختيار المنفى في فرانداڤان معهما. يقال إنَّ الآلاف منهنَّ يجدنَ ملاذاً هناك، في الأديرة الخيريّة، «منازل الأرامل»، أو أيضاً في الطرقات. ومقابل قصعة من الرز أو الحساء، يرتلن في المعابد صلوات لكريشنا، ويكسبنَ هكذا ما يؤمّن قوت يومهنّ - وجبةً واحدة باليوم، ولا يحقُّ لهنَّ أكثر.

أصغت سميتا إلى الأرملة دون أن تقاطعها. إنَّها أكبر سناً منها بقليل. حين تسألها عن عمرها، تجيب لاكشماما أنَّها لا تعرف - تعتقد مع ذلك أنَّها لم تتجاوز الثلاثين عاماً. قسَماتها لم تزل شابة، تقول سميتا في سرّها، وعيناها حيويتان، لكن ينبعث منهما حزن لانهائي، كأنَّه سحيق القِدم.

حان موعد ذهاب لاكشماما لتستقلّ قطارها. تشكرها سميتا على الوجبة وتَعِدُها بأن تصلّي للإله فيشنو لأجلها ولأجل ولديها. تنظر إليها تبتعد نحو الرصيف، وابنها الأصغر بين ذراعيها وتمسك الآخر من يده، وتحمل حقيبة صغيرة فيها كلّ متاعهم. وبينما يتلاشى خيالها في حشد المسافرين المغادرين، تلمس سميتا صورة فيشنو تحت ثوب الساري، مصلِّية أن يصحبها ويحميها في رحلتها وحياتها في المنفى. تفكّر بالملايين من الأرامل اللاتي يعشنَ ظروفها ذاتها، مهجورات ومُفْقَرات ومهملات في هذا البلد الذي لا يحبُّ حتماً النساء كثيراً، وتشعر فجأة بالامتنان لأنَّها هي، سميتا، وُلدت من الداليت بالتأكيد، لكنَّها منتصبة تماماً وموعودة بحياة أفضل ربما.

كنتُ أفضّل لو أنَّني لم أولد، باحت لها لاكشماما قبل أن تختفي.

جوليا

باليرمو، صقلية.

حين أخبرت جوليا أمّها وأخواتها أنَّ الورشة أفلست، أخذت فرنشيسكا تبكي. لم تقل أديلا شيئاً - فهي تُظْهر حيال جميع الأمور هذه اللامبالاة المميزة للمراهقين، كأنَّها غير معنيّة بالأمر. بقيَت **الماما** صامتة، قبل أن تنهار. فهي الورعة جداً بالعادة، والشديدة التدين، اتّهمت السماء باضطهادهم. أولاً زوجها، والآن ورشتهم... أيُّ جريمة ارتكبوا، وأيُّ إثم ليستحقّوا هذا العقاب؟! كيف سيصبح حال بناتها؟ أديلا لم تزل في الثانويّة، فرنشيسكا تزوجت زواجاً فاشلاً وتكدّ لتأمين حاجات صغارها. أمّا جوليا فلا تعرف إلّا المهنة التي علّمَها لها أبوها. وحتى هذا الأب لم يعُد موجوداً، واليوم...

تقضي **الماما** ساعات طويلة في البكاء، تلك الليلة، على

زوجها وعلى بناتها وعلى هذا المنزل الذي سيُنْتَزع منهم - أمّا على نفسها فلم تَبْكِ قط. ومع بزوغ خيوط الفجر الأولى استولت عليها فكرة: جينو باتاغليولا مغرمٌ بجوليا منذ سنوات، ويحلم بالزواج منها. هذا ليس سرّاً على أحد. لدى أسرته المال ويملكون صالونات تصفيف الشعر في أنحاء البلد. أظهر والداه دوماً صداقة لعائلة لانفريدي. ربما يوافقون على شراء الرهن العقاري لمنزل العائلة؟ . . . هذا لن يسمح بإنقاذ الورشة، لكنَّهن على الأقل سيحتفظنَ بسقف. وسيكون لبناتها مأوى. أجل هذا الزواج سينقذهم، تفكّر **الماما**.

عندما اقترحت هذه الفكرة على جوليا، رفضتها رفضاً قاطعاً. لن تكون أبداً زوجة جينو باتاغليولا. تفضّل النوم في الشارع أيضاً! ليس الرجل سيئاً وليس فيه ما يعيب، لكنَّه تافه وبلا طعم. تراه غالباً في الورشة. بمشيته المخلوعة وسبلة شعره يشبه إحدى الشخصيات المضحكة في الفيلم الكوميدي الذي كان أبوها يحبّه كثيراً: **الوحوش** لدينو ريزي.

إنَّه طالب زواج جيد، تستطرد الأمّ، جينو لطيف، ولديه المال: ولن ينقص جوليا شيء، بالتأكيد. فتجيب أنَّه لن ينقصها شيء إلّا الأساسي. ترفض الرضوخ وأن تحبس نفسها في قفص من قضبان برّاقة. لا تريد حياةً من المجاملات والمظاهر. تقول **الماما** إنَّ أخريات فعلنَ ذلك، وتعرف جوليا أنَّها تقول الحقيقة.

كانت أمّها سعيدة في زواجها، مع أنَّها لم تختَر بحقّ خطيبها. ظلّت بنتاً حتى الثلاثين، وانتهت إلى قبول عرض بيترو لانفريدي، الذي كان يغازلها. جاء الحبُّ مع الزمن. ورغم طبعه الغاضب، كان والد جوليا رجلاً طيباً عرف كيف يستميل مشاعرها. ولعلّ الأمر سيجري على المنوال ذاته بالنسبة لها أيضاً.

تصعد جوليا وتنزوي في حجرتها. ولا تستطيع الرضوخ لهذا الخيار. بشرة كمال ملتهبة ولا تريد شيئاً سواها. ترفض أن تندسّ في سرير بارد، بين أغطية جليديّة، مثل بطلة رواية من جزيرة سردينيا عنوانها **حجارة الشر** أربكتها: بعد أن يئست من أن تحبَّ الرجل الذي تزوجته يوماً، تهيم على وجهها في الشوارع بحثاً عن حبيبها الضائع. لا تريد جوليا حياة منفصلة عن الجسد. تتذكّر كلام **النونا**: **افعلي ما بدا لك، يا عزيزتي، لكن إياك أن تتزوجي.**

لكن هل هنالك مَخرج آخر؟ هل ستوافق على أن يُلْقى بأمّها وأخواتها إلى الشارع؟ تقول في سرّها إنَّ الحياة قاسية لتلقي بعبء أسرتها كلّها على كاهلها. في ذلك اليوم، لم تُسعفها الشجاعة لتذهب إلى لقاء كمال الذي ينتظرها. ودون أن تعرف السبب حقّاً، تمشي إلى الكنيسة التي كان يحبّها أبوها حباً جماً - ترتعش حين تتبيّن أنَّها بدأت تتحدّث عنه بصيغة الماضي. وتستدرك أنَّه لم يزل حيّاً.

هي التي لا تصلّي البتّة تحتاج اليوم للتأمل. في هذه الساعة من النهار، المصلّى خالٍ. يسود في الداخل جوٌّ صامت ومكتوم يوحي بأنَّه خارج العالم، أو على العكس في قلبه. أهي البرودة، أم رائحة البخّور الغامضة، أم الصدى الخافت لوقع الخطى على الأحجار؟ تحبس جوليا أنفاسها؛ حين كانت طفلة، كانت تشعر بالتأثر عند دخول الكنائس، كما لو أنَّها كانت تدخل أرضاً مقدّسة، غامضة، مفعَمَة بروح الزمن. بضع شمعات هناك، مُضاءة دوماً، تتساءل مَن لديه الوقت ليحافظ في خضمِّ اضطراب العالم على هذه الشعلات الصغيرة العابرة.

تدسُّ قطعة نقود في صندوق صدقات الكنيسة، وتمسك شمعة وتضعها بجانب الأخريات. تشعلها وتغمض عينيها. وبصوت خافت، تبدأ بالصلاة. تطلب من السماء أن تُعيد لها والدها، وأن تمنحها القوّة لتتقبل هذه الحياة التي لم تخترها. إنَّها فادحة، ضريبة البؤس التي يترتب على آل لانفريدي دفعها، تقول في سرّها.

ولا بد من معجزة لإنقاذهم من الورطة.

لكن المعجزات في هذه الحياة غير موجودة. تعرف جوليا ذلك. إنَّها تحدث في الكتاب المقدّس، أو في القصص التي كانت تقرأها وهي طفلة. لقد توقفت عن تصديق الحكايات الخرافيّة. رماها حادث والدها في سنّ الرشد مباشرة. لم تكن مستعدّة لذلك.

كان من اللطف الفائق أن تسترخي في نهاية سن المراهقة، كما في حمام ساخن لا ترغب بمغادرته. جاء زمن النضج، وهو في غاية القسوة. وانتهى الحلم.

هذا الزواج هو الحلّ الوحيد. قَلَّبَتْ جوليا المسألة في رأسها وأعادت تقليبها مئة مرّة. جينو سيشتري الرهن العقاري المفروض على المنزل. وإذا حُكِمَ على الورشة، فعلى الأقل ستنجو العائلة. هذا ما تقوله أمّها، وهو ما كان سيريده **البابا**. تنجح هذه الحجّة في إقناع جوليا.

في المساء ذاته، تكتب إلى كمال. ستكون الكلمات على الورقة أقلّ قسوة، تفكّر. في رسالتها، تشرح له عن الورشة وعن التهديد الذي يحيق بالعائلة. تخبره بأنّها ستتزوج.

على أيّ حال، لم يتعاهدا على شيء. لم تتطرّق قط إلى مستقبلها معه، ولم تتخيل أنّه يمكن لهذه العلاقة أن تستمر. ليس لديهما الثقافة ذاتها ولا الإله ذاته ولا التقاليد ذاتها. لكن بشرتيهما تنسجمان تماماً. جسد كمال يناسب جسدها بشكل مثالي. بقربه، تشعر جوليا بحيويّة لم تعهدها من قبل قط. تثيرها هذه الرغبة الجامحة التي تعذّبها، وتبقيها مستيقظة ليلاً، وتجعلها تنهض مرتعشة كلّ صباح، وتعيدها كل يوم إلى جواره. هذا الرجل الذي التقته مؤخراً ولا تعرف عنه شيئاً، أو إلّا ما ندر، يثيرها كما لم يُثِرْها أحد من قبل.

هذا ليس حبّاً، تقول في سرّها محاوِلَةً إقناع نفسها. إنَّه شيء آخر، ويجب التخلّي عنه.

لا تعرف حتى إلى أين تُرسل هذه الرسالة. هي لا تعرف أين يُقيم. فهو يتشارك مع عامل آخر في غرفة، قال لها يوماً، في أحد أحياء الضواحي. لا يهم، ستضعها جوليا في المغارة التي اعتادا أن يلتقيا فيها. تركتها تحت صَدَفَة، قرب الصخرة التي تعانَقا قربها مراراً.

تنتهي القصّة هناك، تقول في سرّها، بمصادفة تقريباً كما بدأت.

في تلك الليلة لم يغمض لجوليا جفن. أضاعت النوم في قاع درج في مكتب **البابا**. تنظر إلى الساعات ينفرط عقدها. لياليها أرقٌ وألمٌ، كأنَّ النهار لن يشرق ثانية. ليس لديها القوّة حتى للقراءة. تظلُّ ساكنة مثل صخرة، أسيرة الظلام.

سيترتب عليها أن تُخبر العاملات بإغلاق الورشة. تعرف أنَّ عليها القيام بذلك - لا يمكنها أن تعتمد على أخواتها ولا على أمّها. هؤلاء النسوة اللواتي هنَّ أكثر من زميلاتها وصديقاتها، سيترتب عليها أن تطردهنَّ. لن يكون لديها شيء يُسَكّن ألمهن، سوى دموع مريرة تتقاسمها معهنَّ. تعرف ما تمثّله الورشة بالنسبة إلى كلّ واحدة منهنَّ. بعضهنَّ عشنَ فيها كلّ حياتهنَّ. ماذا سيصبح حال

النونا؟ مَن سيرغب بإعادة تشغيلها؟ أليسا وجينا وألدا تجاوزنَ الخمسين، السّن الحرجة بالنسبة إلى سوق العمل. وماذا ستفعل آغنيس، الوحيدة مع أبنائها بعد أن هجرها زوجها؟ وفيديريكا التي لم يعُد لديها أهل لمساعدتها؟... حاولت جوليا أن تطرد هذه اللحظة، كما يرجئ المرء عملية جراحية يعرف سلفاً أنَّها مؤلمة. مع ذلك لا بد من الخضوع لها. غداً، يجب أن أتحدّث إليهنَّ، تقول في سرّها. هذه الفكرة ترهقها وتبقيها مستيقظة.

وعند الساعة الثانية بعد منتصف الليل، حدث شيء ما.

أُلْقِيَتْ حصاة على نافذتها في عزِّ الليل.

ترتعش جوليا وتخرج من الغفلة التي استغرقت فيها. يتردَّد صوت ارتطام ثانٍ. تقترب من النافذة: كمال هناك في الشارع، في الأسفل. وعيناه تنظران نحوها. يناديها ورسالتها في يده:

جوليا!
انزلي!
يجب أن أكلّمك!

تُشير له جوليا أن يصمت. تخشى أن تستيقظ أمّها أو الجيران - فنومهم خفيف. لكنَّ كمال لم يتحرّك. يصرُّ، يريد أن يكلّمها.

وتنتهي جوليا إلى ارتداء ملابسها. تنزل على عجل وتلحق به في الطريق.

إنَّك مجنون، تقول له. مجنون بمجيئك إلى هنا.

عندئذٍ حدثت المعجزة.

سـارة

مونتريال، كندا.

يبدأ الأمر بطريقة ماكرة. في البداية ينسون أن يدعونها إلى اجتماع. **لم يكونوا يرغبون بإزعاجك**، سيقول لها المساهم المعنيّ فيما بعد.

بعد ذلك يتجنّبون أن يتحدثوا معها عن ملف. **لديكِ الآن ما يكفي لتفكّري فيه**. الكثير من العبارات الفواحة بعبَق التعاطف حتى لتكاد تصدّق ذلك. مراعاة، لا تريدها سارة، وإنَّما تريد الاستمرار في العمل والمحافظة على مكانتها الاعتباريّة كما في السابق. ترفض أن يجاملونها ويدارونها. لكنَّها تشعر بذلك منذ بعض الوقت، يقلّلون من إشراكها في حياة المكتب، في القرارات الواجب اتخاذها وفي إدارة الملفات. توجد أشياء ينسون إخبارها بها، وأسئلة يطرحونها على الآخرين.

منذ الإعلان عن مرضها، تولّى كورست زمام المبادرة في المكتب. تراه سارة أغلب الأحيان يتحدّث مع جونسون ويضحك لمزحاته، ويرافقه لتناول وجبات الغداء. أما إيناس، فأخذت توسّع من حريتها في المبادرات بشأن الملفات التي تعالجها دون أن تستشير سارة. وحين تذكّرها سارة بالنظام، تردّ الشابة بهيئة من الحزن الزائف أنَّها **لم تكن موجودة أو لم تكن متاحة** - أي: في المشفى. تستفيد من غياباتها لتتّخذ قرارات مكانها. وتتدخل في الاجتماعات. وكثيراً ما تَقَرَّبَت من كورست مؤخراً، وحتى بدأت تدخّن لغاية وحيدة، تفكّر سارة، وهي أن تشارك معلّمها الجديد استراحات التدخين. لا يعرف المرء متى يجدُ ترقية ليلتقطها...

في المشفى، بدأت سارة علاجها. ورغم رأي طبيب الأورام، ترفض أن تأخذ أيام إجازة. التغيّب، يعني أن تترك مكانها وتتخلّى عن مملكتها - اللعبة محفوفة بالمخاطر. عليها أن تصمد بأيّ ثمن. تنهض كلّ صباح بشجاعة لتذهب إلى العمل. لن تدَع السرطان يأخذ منها ما بدأت ببنائه منذ سنوات. ستقاتل بأسنانها وأظافرها لتحافظ على إمبراطوريتها. وحدها هذه الفكرة تُبقيها واقفة وتمنحها القوّة والصلابة والطاقة التي تحتاجها.

مع ذلك حذّرها طبيب الأورام. سيكون العلاج شاقاً. وأكثر من ذلك أيضاً آثاره الجانبيّة. وضعَ لائحة كاملة بهذه الآثار في جدولٍ قدَّمه لها مُحَدِّداً متى ستشعر بالغثيان. وما هي النتائج على

شعرها وأظافرها وحواجبها وبشرتها ويديها وقدميها. ما ينتظرها، يوماً بيوم، خلال أشهر من علاجها. عادت سارة بنحو عشر وصفات، وصفة لمواجهة كلّ أثر جانبي.

ما لم يقُله وما لم يذكره أحد هو هذا الأثر غير المرغوب فيه أكثر من تناذر اليدين - القدمين، والفظيع أكثر من الغثيان أو غشاوة الإدراك التي تغرق فيها أحياناً. هذا الأثر الذي لم تتحضّر له ولن تعالجه أيّة وصفة، هو هذا الاستبعاد الذي يسير جنباً إلى جنب مع المرض، هذا التهميش البطيء والمؤلم الذي أصبحت هدفاً له.

في البداية لم ترغب سارة بالتعليق على ما يحدث في المكتب. تُفَضّل أن تتجاهلَ «تناسي» زملائها وهذه اللامبالاة الجديدة في عيني جونسون. والحقّ يقال أنَّها لم تختر العبارة المناسبة، إنَّه بالأصح شكلٌ من أشكال المسافة، وفتورٌ غريبٌ في علاقاتهم المتبادلة. تحتاج إلى أسابيع من المواعيد التي لم يستضيفوها فيها والاجتماعات التي لم يدعوها إليها والملفات التي لم يعهَدوا بها إليها والزبائن الذين لم يقدّموهم لها، لكي تتأكد أخيراً: إنَّهم يهمّشونها.

هذا العنف يحمل اسماً يشقُّ عليها أن تتلفظ به: تمييز. كلمة سمِعَتْها مراراً وتكراراً في أثناء محاكماتها ولم تَعنها حقاً أبداً - على الأقل هذا ما كانت تظنّه. مع ذلك تحفظ تعريفها عن ظهر قلب.

«كل تفرقة تُمَارس على الأشخاص بسبب أصلهم أو جنسهم أو حالتهم العائليّة أو حملهم، أو مظهرهم الجسدي أو انتمائهم الأسري أو حالتهم الصحيّة أو إعاقتهم أو صفاتهم الوراثيّة أو أخلاقهم، أو ميلهم أو هويتهم الجنسيّة أو عمرهم، أو آرائهم السياسيّة أو أنشطتهم النقابية، انتماءهم أو عدم انتمائهم الحقيقي أو المفترض لإثنية أو أمّة أو عرق أو دين محدد». يرتبط المصطلح أحياناً بمصطلح «الوصمة» كما يُعَرِّفه عالم الاجتماع إيرفينغ غوفمان: **«سمةٌ تجعل الفرد مختلفاً عن الفئة التي نريد تصنيفه فيها»**. فردٌ مصابٌ بعلّة هو إذاً موصومٌ ويتعارض مع الآخرين الذين يسميهم غوفمان **الطبيعيين**.

تعرف سارة ذلك الآن: إنَّها موصومة. في هذا المجتمع الذي يُبَجِّلُ الشباب والحيويّة، تُدرك أنَّ المرضى والضعفاء لا مكان لهم. وهي مَن كانت تنتمي إلى عالم الأقوياء توشك أن تسقط وتُغيّر معسكرها.

أيُّ نقضٍ ضد هذا؟ تعرفُ كيف تُصارع ضد المرض، فلديها الأسلحة والعلاج والأطباء إلى جانبها. أمّا ضد الاستعباد، ما هو العلاج؟ إنَّهم يدفعونها ببطء نحو المخرج ويحبسونها في لوحة إعلانات، فما عساها تفعل لتقلب مسارها؟

تُصارع، أجل، لكن كيف؟ هل تتهم **جونسون ولوكوود** بالتمييز؟ هذا يتضمّن الاستقالة. وإذا غادرت فلن تحصل على أيّة

مساعدة ولن تستفيد من أيّة حماية اجتماعيّة. هل تبحث عن عمل في مكان آخر؟ مَن سيشغّلها هي وإصابتها بالسرطان؟ هل تؤسس مكتباً خاصاً بها؟ فكرة مغرية لكنَّها تتطلب استثمارات. والبنوك لا تُقرض إلّا مَن هم في صحة جيدة، هي تعرف ذلك. وأيضاً مَن هم الزبائن الذين سيأتون إليها؟ لن تستطيع أن تعدهم بشيء، ولا حتى أنَّها ستكون موجودة بعد عام للدفاع عن مصالحهم.

تتذكّر تلك القضيّة الرهيبة منذ سنوات، تلك المرأة التي دافع عنها أحد زملائها وكانت تعمل سكرتيرة في عيادة طبيب. اشتكَت من ألم رأسها فلجأَت إلى الطبيب الذي يُشغلها؛ أصغى إليها. وبعد أن أجرى لها الفحوصات، استدعاها في مساء اليوم ذاته ليبلّغها بتسريحها: فهي مصابة بالسرطان. بالتأكيد كانت الأسباب المزعومة «اقتصاديّة»، لكن لا أحد يصدّق ذلك. استغرقَت الدعوى ثلاث سنوات وكسبتها المرأة. لكنَّها توفيت بعد ذلك بفترة قصيرة.

العنف الذي يضرب سارة ألطف. لا تقول اسمه، إنَّه أشدُّ مكراً، وهو مُرْهَفٌ إلى حدّ يصعب إثباته. لكنَّه مع ذلك موجود.

ذات صباح من شهر يناير، يستدعيها جونسون إلى مكتبه في الأعلى. يستفسر عن أخبارها مُبْدِياً تأثراً زائفاً. سارة على ما يرام، شكراً. في العلاج الكيمائي، أجل. يأتي عندئذٍ على ذكر ابن عمّه البعيد الذي تَعَالَج من السرطان منذ عشرين عاماً وهو على أحسن حال اليوم. لا تعبأ سارة بكلّ حالات الشفاء التي يسوقونها لها بلا

تحفّظ ويقذفونها في وجهها مثل عظامٍ لتقضمها. هذا لن يُغيّر شيئاً بالنسبة لها. تودُّ أن تجيبه بأنَّ أمّها ماتت بهذا المرض، وأنَّها هي نفسها مريضة مثل كلب، وأنَّه يمكنه الاحتفاظ بتعاطفه المرائي لنفسه. فهو لا يعرف معنى أن يُصاب المرء بقلاعٍ في الفم إلى درجة لا يسعه معها أن يأكل ولا معنى أن يشعر بقدميه لاهبتين إلى حدٍّ لا يسعه معه أن يمشي في نهاية النهار، ولا معنى أن يكون في غاية الإنهاك بحيث يشقّ عليه صعود أصغر درج. وخلف مظاهر شفقته المرائية، يسخَر لمعرفته أنَّه لن يعود لديكم شعر في غضون أسابيع، وأنَّ جسدكم سيغدو هزيلاً إلى حدٍّ تخاف معه أن تنظر إلى نفسك في المرآة، وأنَّك خائف من كلّ شيء، خائف من الألم، من الموت، وأنَّك لم تعُد تنام الليل، وأنَّك تتقيأ ثلاث مرّات في اليوم، وأنَّك في بعض الصباحات لا تتمالك نفسك حتى على مجرد الوقوف. ليذهب إلى الشيطان إذاً، مع ضميره المرتاح. وابن عمه أيضاً.

لكنَّ سارة، كدأبها دوماً، تظلُّ مهذبة.

يصل جونسون إلى الموضوع: في ملفٍّ بيلغوفار، يريد أن يضمَّ إليها شريكاً. تظلُّ سارة فاغرة فاها. تستغرقُ بضع لحظات قبل أن تحتج. بيلغوفار هو زبونها منذ سنوات وليست بحاجة إلى أحد في إدارة مصالحه. يتنهّد جونسون، ويستحضر عندئذٍ ذلك الاجتماع الوحيد الذي وصلَت إليه متأخرة -كانت قد استيقظت فجراً حتى تذهب لإجراء فحصٍ في المشفى قبل بداية النهار. كان جهاز الرنين

المغناطيسي معطلاً- ما أسوأ حظكِ، هذا يحدث مرّة كل ثلاث سنوات، قال التقني بهيئة منزعجة. سارعَت سارة لتدارك تأخّرها ووصلت لاهثة إلى الاجتماع الذي بدأ لتوه. بالتأكيد، لا يحتاج جونسون إلى كلّ هذا، فتبريرات سارة لا تهمّه ويمكنها أن تحتفظ بخردتها. كانت إيناس موجودة لحسن الحظ. يحدّد، دائماً في الوقت المناسب، وجاهزة حتماً. ويشير أيضاً إلى جلسة المحكمة التي أصيبت فيها سارة بالتوعك ما اضطرها إلى تأجيلها. ويصبح صوته عندئذٍ معسولاً، هذه النبرة التي تمقتها من بين جميع النبرات، ليقول لها إنَّه يتفهم التزاماتها -الطبيّة وأن كلَّ الناس-هنا-يتمنون-أن تتعافى-وبأقصى-سرعة- جونسون خليقٌ بهذا، هذه العبارات الجاهزة التي لا تعني شيئاً والجوفاء، يعتقد أنَّ سارة بحاجة -إلى-دعم- فهذا-ميلُ-وجوهر-هذا-المكتب، العمل-كفريق. ولكي يسندها-في هذه-اللحظة-العصيبة-سينضم-إليها-لمساعدتها... غاري كورست.

لو لم تكن سارة جالسة، لسقطت.

كانت ستُفضّلُ أيّ شيء، أي شيء أكثر ممّا يحدث الآن.

كانت تُفضّل أن تُطْرد، وأن توقف عن العمل. كانت تفضّل أن تُصْفَع وتُشْتم، على الأقل لكان الأمر واضحاً. أيّ شيء أفضل من هذا الإعلان المهين، وهذا القتل البطيء وغير المحتمل. تشعر أنَّها ثورٌ في الحلبة، وأنَّهم يوشكون أن يضحّوا بها. تعرف أنَّه لا جدوى

من الاعتراض، ولن تستطيع أيّة حجة تقدّمها أن تغيّر شيئاً. فمصيرها محتوم، وقد قرَّره جونسون. مريضة، لم يعُد لها أيّة فائدة. إنَّها قيمة لم يعُد يريد الاعتماد عليها.

سيستولي كورست على ملف بيلغوفار. سيأخذ منها أهم زبائنها. يعرف جونسون ذلك. إنَّهما يُقَطِّعَانها سويّة الآن، بينما هي ممدّدة على الأرض. تودُّ سارة أن تصرخ طالبة النجدة، تودُّ أن تصرخ كما في ألعاب أطفالها: أمسكوا هذا اللص! مثلما يصرخ المرء في الصحراء. لا يوجد أحدٌ ليسمعها، ولن يهبَّ أحد لنجدتها. اللصوص يرتدون ملابس أنيقة، والأمر غير واضح. وحتى مظاهره تبدو محترمة. إنَّه عنفٌ أنيق، عنفٌ معطّر. عنفٌ يرتدي حلّة فاخرة.

يأخذ غاري كورست بثأره. ومع ملف بيلغوفار يُصبح الشريك الأقوى في المكتب، والخلفَ المثالي لجونسون. فهو ليس مريضاً، ولا ضعيفاً، وحتى في أوج حيويته، كمصّاص دماء ارتوى من دم الآخرين.

في نهاية المحادثة، ينظر جونسون إلى سارة بهيئة متأسِّفة، ويقذفها بهذه العبارة القاسية: **تبدين متعبة، يجب أن تخلدي إلى الراحة.**

تعود سارة إلى مكتبها منهَكَة. كانت تعرف أنَّها ستتلقّى طعنات، لكنَّها لم تكُن تتوقع هذه الطعنة. بعد بضعة أيام، حين ينتشر الخبر، حتى المعلومة لا تُفَاجئها: لقد عُيِّنَ كورست مديراً إداريّاً. إنَّه يلي جونسون في منصبه الرفيع على رأس المكتب. يعلِنُ هذا التعيين نهاية مهنة سارة.

في ذلك اليوم، تعود إلى منزلها عصراً. إنَّه توقيت لا تعرفه، إنَّه وقتٌ يكون فيه منزلها فارغاً. كلّ شيء فيه صامت. تجلس على سريرها وتشرع في البكاء، لأنَّها تفكّر في تلك المرأة التي كانتها، التي ظلّت عليها حتى يوم أمس، امرأة قويّة وذات إرادة لها مكانها في هذا العالم، وتقول في سرّها إنَّ العالم تخلّى عنها اليوم.

إذاً لم يعُد هنالك شيء يعترض سقوطها.

لقد بدأ انحدارها للتو.

هذا الصباح انقطع أحد الخيطان.
نادراً ما يحدث ذلك.
لكنَّه حدث.

إنَّها كارثة، موجة عاتية
على المقياس المجهري،
تُدَمِّرُ عمل أيام عديدة.

أفكّر عندئذٍ في بنلوب،
لا تكل ولا تمل وهي تغزل
كل نهار ما تفكّه في الليل.

يجب أن أبدأ من جديد.

سيكون هذا الزي جميلاً، وهذه الفكرة تواسيني.
لن أضيع الخيط،
يجب أن أتشبث به.

أستعيده وأتابع.

سـميتا

فاراناسي، أوتار براديش، الهند.

تستيقظ سميتا مذعورة على الرصيف حيث غَفت، لاليتا متكوّرة في حضنها.

يُرسل الفجر أشعته الأولى. بدأ مئات الأشخاص يركضون، جارفين كلّ شيء في طريقهم، نحو قطار وصل الآن. تُوقِظ الفتاة وهي مخبولة.

هيّا!
جاء القطار!
بسرعة!

تجمع أمتعتها على عجل - نامت على الحقيبة لتحميها من اللصوص. تمسك يد لاليتا وتندفع نحو عربة الدرجة الثالثة. إنَّه حشد حقيقي على الرصيف، مدٌّ بشريّ، الناس يندفعون ويتدافعون

ويراوحون في مكانهم. «**تشالو، تشالو!**» يصرخون في كل مكان، **هيّا، هيّا!** تتعلّق سميتا بقبضة باب القطار. الضغط قويٌّ، تتشبث بها. تحاول أن تجعل لاليتا تصعد أولاً، تخاف أن تختنق الفتاة الصغيرة بين المسافرين المتعجّلين. فجأة ينتابها شكّ، فتلتفت نحو الرجل النحيل بجانبها. تصرخ، هل حقّاً هذا القطار يذهب إلى تشيناي؟

لا، يُجيب. يذهب إلى جايبور. يجب ألّا تعتمدي على الشاخصات الإعلانيّة، يضيف، فهي غالباً خاطئة.

تمسك سميتا بلاليتا التي أصبحت الآن في العربة، وتعود أدراجها وهي تخترق الحشد بصعوبة بالغة، مثل سمكة سلمون تسبح عكس التيار.

وبعد غدوات وروحات عديدة، ومعلوماتٍ متضاربة، ومحاولة عابثة للاستفسار من موظّف، تعثر سميتا ولاليتا أخيراً على القطار المُتّجه إلى تشيناي. صعدتا إلى العربة الزرقاء «**عربة النوم**»، إنَّها عربة دون تكييف، بوسائل راحة مهترئة، تعيث فيها الحشرات والفئران. تندسان بصعوبة في المقصورة المكتظة حتى تصلا إلى مكان صغير على مقعد خشبي. سبق أن تكدّس نحو عشرين شخصاً في هذه الفسحة من بضعة أمتار مربعة. وفوق ذلك الأماكن المخصّصة للحقائب يشغلها رجال ونساء يدلون سيقانهم في الهواء. ستكون المسافة طويلة، أكثر من ألفي كيلومتر سيجتازونها بهذه

الطريقة. قطارهم بطيء وأقل تكلفةً من القطار السريع. يتوقّف في كلّ مكان ويسير ببطء. اجتيازُ الهند، يا للجنون، تقول سميتا في سرّها. كل هؤلاء البشر يسافرون هنا، مُكَدَّسين ومختنقين ومنهكين في عربات الدرجة الأخيرة. في كلّ مكان، عائلاتٌ وأطفالٌ، وعجائز، يجلسون على الأرض أو يقفون متراصين بعضهم إلى بعض ولا يستطيعون التحرّك.

تمضي الساعات الأولى من الرحلة بلا عائق. تنام لاليتا، وسميتا تغفو في حالة نصف رقاد دون أحلام. تستيقظ الطفلة فجأة، وتريد قضاء حاجة ملحّة. تبدأ سميتا في شقّ طريقها معها حتى نهاية العربة. المشروع خطر، ومن الصعب ألّا تدوس على المسافرين الكثر الجالسين على الأرض. ورغم حذرها، تمشي على أحدهم فيشتمها بهيئة حانقة.

حين تصل أمام باب المرحاض، تجده مقفلاً بإحكام. تحاول سميتا فتحه، وتقرعه بضربات عديدة. لا جدوى من الإلحاح، تقول امرأة عجوز بلا أسنان ذات بشرة مدبوغة مثل الرقعة، جالسة على الأرض، منذ ساعات أغلقوه. أسرة كاملة كانت تبحث عن زاوية تجلس فيها أو تنام. لن يخرجوا منه قبل نهاية الرحلة، تقول لهما. تبدأ سميتا بالطَّرق، تارة بلهجة آمرة، وتارة أخرى متوسِّلة. لا جدوى من الصراخ، تضيف العجوز، حاولَ آخرون قبلك.

ابنتي مضطرة فعلاً، تنفخ سميتا. تشير العجوز دون أسنان إلى

زاوية في العربة: ليس أمامها إلّا أن تفعلها هناك. أو أن تنتظر المحطّة القادمة. تبدو لاليتا مشلولة؛ لا تريد أن تقضي حاجتها أمام المسافرين الآخرين، في سنّ السادسة، فلديها الآن حسّ حادّ بالكرامة. تُفهمها سميتا أنّه ليس أمامها خيار آخر. لا يمكنهما أن تخاطرا بالنزول في المحطّة القادمة، باختصار. في المحطّة السابقة، وقعت أسرة في الفخ - كان يوجد أناس في كلّ مكان على الرصيف، ولم يستطيعوا الصعود ثانية إلى القطار. فانطلق من دونهم في مكان ما، في تلك المحطّة المجهولة، دون حقائب.

تهزُّ لاليتا رأسها. تُفضّلُ أن تتمالك نفسها. سيكون هناك توقف أطول بعد ساعة أو ساعتين في جابالبور. ستصمد حتى ذلك الحين.

وبينما هما تعودان إلى مقعدهما، تجتاح العربة رائحة نتنة، نتانةُ بولٍ ممزوج بالبراز. هذه هي الحال في كل محطّة يصل إليها القطار - اعتاد سكان المدن أن يأتوا لقضاء حاجتهم قرب خطوط السكّة الحديد. تعرف سميتا حقَّ المعرفة هذه الرائحة، فهي ذاتها في كلِّ مكان، ليس لها حدود ولا تخضع لتصنيف الطبقة أو الغنى. إنَّها معتادة عليها لكنَّها تحبس أنفاسها، كما فعلَت ذلك مراراً في أثناء جولاتها. تضع وشاحاً على أنفها وعلى أنف ابنتها.

لن تعود أبداً إلى هذا. لقد عاهدت نفسها على ذلك. لن تعود للعيش محبوسة الأنفاس. ستتنفّس أخيراً بحريّة وكرامة.

يغادر القطار من جديد. تتلاشى الرائحة المقزّزة لتحل مكانها رائحة خانقة بدرجة أقلّ لكنَّها مثيرة للاشمئزاز، رائحة أجساد متراصّة ومُتَعَرِّقَة. يوشك النهار أن ينتصف، ومن الصعب تحمّل الحرارة في المقصورات المكتظّة التي تسحب منها الهواء النتن مروحة بسيطة. تسقي سميتا لاليتا وترشف هي نفسها بضع جرعات.

يتطاول النهار في خمولٍ دبقٍ. البعض يلمّعون أحذيتهم وسط المقصورة. آخرون يشاهدون المناظر الطبيعيّة من فُرْجَةِ الباب، أو يتزاحمون على قضبان النوافذ، آملين أن يحصلوا منها على نفحاتٍ من الهواء المنعش، هناك حيث لا يَدلف منها إلّا تيار هواء استوائي حار. يجوبُ القطارَ رجلٌ يتلو الصلوات، ويرشُّ الماء على رؤوس المسافرين كنوع من التبريك. يكنسُ متسولٌ أرضيّة العربة مطالباً ببضع قطع نقديّة من أجل طعامه. يروي لمن يودُّ سماعه قصته الحزينة. كان يعمل في الحقول مع أسرته، في الشمال، حين جاء مزارعون أغنياء يبحثون عن والده الذي استدان منهم مالاً. قتلوه وقطّعوا أعضاءه واقتلعوا عينيه قبل أن يعلقونه من قدميه أمام عائلته مجتمعة. ترتعش لاليتا عند سماع هذه القصّة الكئيبة. تشتم سميتا المتسوّل، فليذهب إذاً ليكنس في مكان آخر، يوجد أطفال هنا.

بجانبها، تروي امرأة قصيرة وسمينة مبلّلة بالعرق أنَّها ذاهبة إلى معبد تيروباتي لتقدم فيه قرباناً. تخرجُ سميتا من خدرها. مَرِضَ ابنُها، وحَكَم الأطباء بأنَّه لا أمل بشفائه. نصحها معالجٌ أن تضحي

في معبد، فشُفي ابنها. واليوم ستشكر فيشنو على هذه المعجزة، وتضع عند قدمي تمثاله الطعام وأكاليل الورد. لهذا بدأت رحلةً من آلاف الكيلومترات. تشكو من ظروف السفر، لكن هذه هي الحال، تضيف: الله يقرِّر إن كان الطريق الذي يفضي إليه سيكون وعراً.

يحلُّ الليل. في العربة، ينظّم المسافرون أنفسهم ليجدوا ما يشبه الراحة. تتحوّل المقاعد الخشبيّة إلى مراقد. مع ذلك من الصعب النوم عليها. تهمد سميتا أخيراً وهي ملتصقة بجسد لاليتا الصغير، قرب المرأة الموسرة. تُعيد التفكير بالوعد الذي قطعته هي نفسها للإله فيشنو قبل أن تبدأ هذه الرحلة. عليها أن تفي بوعدها تقول في سرّها.

تتخذ عندئذٍ قراراً، هنا، على هذا المرقد الخشبي، في هذا الليل العميق، في مكانٍ ما بين ولاية تشاتيسغار وأندرا براديش: غداً، لن تتابع هي ولاليتا طريقهما إلى تشيناي كما خطَّطت. حين يتوقّف القطار في محطة تيروباتي، ستنزلان منه وستذهبان إلى الجبل المقدّس لتشكران إلههما. تغفو سميتا مع هذه الفكرة المريحة فجأة: فيشنو ينتظرهما.

إلهها موجود، وقريب جداً.

جوليا

باليرمو، صقلية.

تلحق جوليا بكمال إلى الشارع في منتصف الليل. تشعر بنفسها محمومة فجأة أمامه. ماذا سيقول؟ أنَّه يحبُّها؟ أنَّه لا يريد أن ينفصلا؟ بالتأكيد سيحاول التمسّك بها ومنعها من إبرام عقد هذا الزواج الجنوني. وكما في المسلسلات الميلودراميّة التي تشاهدها **الماما** طوال النهار، تتوقّع جوليا عناقاً ووداعاً مؤثرين... لكن لا بد من الافتراق.

لكنَّ كمال ليس منتحباً ولا حتى منفعلاً. إنه بالأحرى مستثارٌ ومتلهفٌ. تشعُّ عيناه ببريق غريب. يتكلم بصوت خفيض، بسرعة، مثل من يفشي سرّاً.

ربما لدي حلّ للورشة، يقول.

ودون مزيد من الشرح، يمسك يدها ويقودها نحو البحر، إلى المغارة التي اعتادا أن يلتقيا فيها.

في الظلام، يصعب على جوليا أن تميِّز قسماته. قرأ رسالتها، يقول: إقفال الورشة ليس قدراً. هنالك حلٌّ يمكن أن ينقذهم. تُحَدِّقُ فيه غير مصدّقة - أيّة طاقة عجيبة استولت عليه؟ كمال الهادئ جداً بالعادة أصبح متحمساً. يتابع: إذا كانت قواعد السلوك عند السيخ تمنعهم من قصّ شعرهم، فإنَّ الحال بالنسبة إلى الهندوس في بلده مختلف. إنَّهم يقصّونه بالآلاف في المعابد كقربان لآلهتهم. وإذا كانت حلاقة الشعر تُعتبر مقدّسة، فإنَّ الشعر نفسه ليس مقدّساً: يجمعونه بعد ذلك ويبيعونه في الأسواق. البعض جعل من هذا الميدان نشاطاً تجاريّاً. فإذا كانت المادة الأوليّة شحيحة هنا، يستنتج، يجب الذهاب للبحث عنها هناك. واستيرادها. هذه هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ الورشة.

لم تحر جوليا جواباً. تتأرجح بين الذهول وعدم التصديق. يبدو لها مشروع كمال جنونياً. شعرٌ هندي، يا لها من فكرة غريبة... بالتأكيد، ستعرف كيف تعالجه. تعرف التركيبة الكيميائيّة لوالدها، وستنجح في إزالة ألوانه، وجَعْلِهِ بلونٍ أبيض حليبي يسمح بعد ذلك بإعادة صبغه. لديها المعرفة والقدرة على القيام بذلك. لكن هذه الفكرة ترعبها. استيراد، تبدو لها اللفظة شبه غريبة، كأنَّها مُستعارة من لغة أجنبيّة، لغة لا تنتمي إلى لغة هذا المكان، إلى لغة الورشات

الصغيرة. الشعر الذي يُعالجه آل لانفريدي يأتي من صقلية، وظلّ متوفراً دوماً، إنَّه شعرٌ محليّ، شعرٌ من الجزيرة.

حين يجفُّ نبعٌ، يجب البحث عن نبع آخر، يُجيب كمال. وإذا لم يعد الإيطاليّون يحتفظون بشعرهم، فإنَّ الهنود يهبونه! يزورون بالآلاف المعابد كلَّ عام. شعرهم يُباع بالأطنان. إنَّه هبة سماويّة لا تنضب.

لا يسع جوليا إلّا أن تفكّر. تغريها هذه الفكرة وتبدو لها بعد برهة بعيدة المنال. يؤكد كمال أنَّه يستطيع مساعدتها. فهو يتكلَّم اللغة ويعرف البلد. ويمكنه أن يكون صلة وصل بين الهند وإيطاليا. هذا الرجل رائع، تقول في سرّها، يبدو مؤمناً بأنَّ كلّ شيء ممكن. وتلوم نفسها لأنَّها متشكِّكة ويائسة إلى هذا الحدِّ.

تعود إلى منزلها ورأسها ملتهب. يهتاج ذهنها مثل قردٍ في قفص، من المستحيل أن يهدأ. لن تفلح في النوم، ولا جدوى من المحاولة. تُشَغِّل حاسوبها وتقضي بقيّة الليل في عملية بحث محمومة.

كمال يقول الصدق. على الإنترنت، تجد صور هنود وهنديّات في المعابد. وعلى أمل جني محصول وافر أو عقد قران سعيد أو التمتّع بصحة أفضل، يأتي الرجال والنساء لتقديم شعرهم إلى آلهتهم. وهم غالباً من الفقراء والمنبوذين الذين يُعْتَبَرُ الشعر ثروتهم الوحيدة.

هنالك أيضاً رجلُ أعمالٍ إنكليزي في هذه المقالة التي عثرت عليها للتو، صنعَ ثروة من تجارة الشعر المستورَد. إنَّه مشهور الآن في العالم كلّه. يتنقل بطائرة مروحيّة. وإلى مصنعه القريب من روما، يجلب خصلات الشعر الهندي بالأطنان. تصل البضاعة بالطائرة إلى مطار فيوميتشينو قبل إرسالها إلى المنطقة الصناعيّة في شمال المدينة حيث تُعَالج في ورشات ضخمة. يؤكّد الإنكليزي: الشعر الهندي هو الأفضل في العالم. في الفيلا الخاصة به في روما، يشرحُ وهو متمدِّد قرب حوض السباحة كيف يُطَهَّر ويُفْرز وتُزال ألوانه في أحواضٍ قبل أن يُعاد صبغه من جديد بالأشقر أو الكستنائي أو الأصهب أو الأسمر، فيغدو شبيهاً تماماً بالشعر الأوروبي. يقول بسرور: **نُحَوِّل الذهب الأسود إلى ذهب أشقر**. وتُصَنَّف الخصلات بعد ذلك بحسب الطول، ثم تُجْمَع في رزمٍ وتُرسَل إلى أصقاع الأرض، فتتحول إلى وصلات لإطالة الشعر أو باروكات. ثلاثة وخمسون بلداً، وخمسة وعشرون ألف صالون لتصفيف الشعر، الأرقام مدوّخة! تحوَّلَت شركته إلى شركة متعددة الجنسيّات. يعترف أنَّ الناس سَخِروا منه في البداية ومن مبادرته المجنونة. لكنَّ الشركة ازدهرت. ولديها الآن خمسمئة عامل ومواقع إنتاج في ثلاث قارّات وتُؤَمِّن ثمانين بالمئة من احتياجات سوق الشعر العالمي، يختتم بفخر.

مكتبة

جوليا محتارة. كلُّ شيء يبدو بسيطاً بالنسبة إلى الرجل الإنكليزي. هل سيكون بوسعها أن تحقِّق ما حقَّقه؟ هل ستنجح في

الوصول إلى هذه المرحلة من القوّة؟ مَن هي لتحسبَ نفسها مؤهّلة لهذا المشروع؟ أليس تحويل ورشة أسريّة إلى مشروع صناعي هو حلم طوباوي صرف. لكنَّ الإنكليزي فعل ذلك. وما دام قد نجح، ألا يسعها أن تنجح هي أيضاً؟

سؤال واحد يعذّبها أكثر من أيّ شيء آخر: ماذا ستقول لوالدها؟ هل سيدعمها في هذا المشروع. كان يؤكد أنَّه لا بد للمرء أن يتمتع ببصيرة نافذة وأن يكون جريئاً ومُبَادِراً. مع ذلك كان مرتبطاً ارتباطاً قويّاً بجذوره وهويته. الشعر الصقلي، كان يطيب له أن يردّد على مستمعيه وهو يشير إلى خصلاته. ألن يكون التطور خيانة إذاً؟

تتخيّل جوليا صورتها في المكتب، بجانب صور أبيها وجدّها، ثلاثة أجيال من آل لانفريدي نجحوا في الورشة. تقول في سرّها عندئذٍ إنَّ الخيانة الحقيقيّة هي في هَجر المهنة. أليس اندثار عمل حياتهم هو الخيانة الكاملة له؟

تودُّ الاقتناع بذلك. لن يَغْرَقُوا. ولن يُقضى على الورشة. لن تتزوج أبداً جينو باتاغليولا. فكرةُ كمال هي هبة وفرصة وعناية إلهيّة. كانت قد قالت في سرّها أمام دُرْج **البابا** في ذلك اليوم إنَّها سفينة **كوستا كونكورديا**، لكن يبدو لها الآن أن ثمة قارباً يقترب في الظلام لإنقاذهم ويرمي إليهم بطوق النجاة.

يخطر كمال ببالها، وتُدْرِكُ فجأةً أنَّها لم تُقابل هذا الرجل بمحض الصدفة يوم عيد القدّيسة سانتا روزالينا. وإنَّما بُعِثَ إليها. سمعَت السماءُ صلاتها واستجابت لها.

وها هي العلامة، المعجزة التي كانت تنتظرها.

سـميتا

تيروباتي، أندرا براديش، الهند.

تيروباتي! تيروباتي!

أخذ رجلٌ في العربة يصرخ. سيتوقف القطار عمّا قليل في محطة تيروباتي، تُصْدِرُ المكابحُ صريراً على السكّة. وعلى الفور تتدفّق سيول من الحجاج على الرصيف يحملون الأغطية والحقائب والقدور المعدنيّة والمؤن والورود والقرابين، والأطفال في الأحضان والعجائز على الظهور. يهرع الجميع نحو المخرج، باتجاه الهضبة المقدّسة. مُنْجَرفة في هذا التدفّق الغزير، وغير قادرة على مقاومة التيار، تتشبّث سميتا بيد لاليتا. وخوفاً من أن تفلت منها، تنتهي إلى حملها بين ذراعيها. تشبه المحطة مملكة نمل، تتزاحم فيها عشرات الآلاف من الحشرات. نتحدّث عن خمسين ألف حاج يوميّاً، ويتضاعف العدد عشر مرّات في أيام الأعياد، يأتون لتقديم الشكر للورد فينكاتيسوارا، «ربُّ الهضاب السبع»، أحد تجسيدات الإله

فيشنو. تُعزى إليه القدرة على الاستجابة لأيّ طلب يُقَدّم أمامه. ينتصبُ تمثاله العملاق في حرم المعبد، أعلى الهضبة المقدّسة التي تشرف على المدينة المنبسطة على سفوحها.

وباحتكاكها مع هذه الآلاف من النفوس التقية، يَستولي على سميتا نوع من الحماس ويعتريها في الوقت ذاته هلع عظيم. تشعرُ أنَّها صغيرة وضئيلة وسط هذا الحشد الغريب عنها ولكنَّه يُقاسمها الحماس ذاته. الجميع يأتون هنا أملاً بحياة أفضل، أو لتقديم الشكر على نِعَمِهِ: ولادةُ ابن، شفاءُ قريبٍ، محصولٌ وافر، زواجٌ سعيد.

وللتوجّه إلى المعبد، يهرع البعض نحو الحافلات التي تُقِلُّ الحجاج إلى أعلى الجبل بأربع وأربعين روبيّة وسطيّاً للشخص الواحد. ومع ذلك يعرف الجميع أنَّ الحج الحقيقي يكون مشياً على الأقدام. لم تأتِ سميتا من مكان بعيد جداً لتركن إلى السهولة. تخلع خفّيها وخفي لاليتا، كما يقضي التقليد. وكثيرون مثلها خلعوا أحذيتهم، كدلالة على الخشوع، ليبدؤوا تسلّق الدرجات التي تفضي إلى باب المعبد. ثلاثة آلاف وستمئة درجة، نحو خمسة عشر كيلومتراً، وثلاث ساعات من الجهد! يوضّح بائع فاكهة يجلس بجانب الطريق. تقلقُ سميتا على لاليتا، فالفتاة الصغيرة متعبة، وقد نالتا قسطاً ضئيلاً من النوم في القطار غير المريح والمكتظ. لا يهم، لم يعُد بوسعهما التراجع. ستمضيان على الوتيرة ذاتها، حتى لو استغرق ذلك النهار كلّه. لقد سهر فيشنو عليهما، وقادهما إلى هنا،

ولا يحقُّ لهما أن تضعفا وهما بهذا القرب منه. تنفق سميتا بضع روبيات من أجل جوزة هند، فتلتهمها لاليتا بشهيّة. وتحتفظان بواحدة لتكسراها على الدرجة الأولى من المسير، كقربانٍ لله، بحسب العرف. يُشعل البعض شموعاً يضعونها على كلِّ درجة - لا بد من التحلّي بالشجاعة والإرادة العاتية للصعود إلى المعبد الرابض. آخرون يلصقون عليه مزيجاً من الصباغ والماء ما يُعطي الدرج لوناً لامعاً قرمزيّاً وأمغر. الأكثر ورعاً والأشد عزيمة، يقطعون الطريق على ركبهم. تُراقب سميتا عائلة بكاملها تتقدّم هكذا ببطء، مُقَطّبة الوجه من الألم مع كلِّ درجة تجتازها. يا لها من تضحية، تقول في سرّها بحسد.

في الربع الأول من المسير، تبدي لاليتا علائم التعب. تحدّدان استراحات لإرواء عطشهما والتقاط أنفاسهما. بعد ساعة من المشي، لم تعُد الفتاة الصغيرة تقوى على المتابعة. ترفع سميتا الجسد الصغير والهزيل على ظهرها للاستمرار في الصعود. هي نفسها نحيفة وعلى حافة الإنهاك، لكنَّها تبذل كلّ قواها من أجل هدفها، وتركِّز على صورة هذا الإله المعبود الذي ستَمثُل أمامه عمّا قريب. يبدو لها أنَّ فيشنو يُضاعف قواها اليوم، ليتيح لها، هي بالذات، سميتا، أن تصل إلى الأعلى والسجود أمامه.

حين أنهَت سميتا صعودها، كانت لاليتا قد نامت للتو. تجلسُ لتلتقط أنفاسها أمام أبواب المعبد. أسوارٌ عالية تحدّد فضاءه

المقدّس. برجٌ عملاقٌ من الغرانيت الأبيض، على الطراز المعماري الدرافيني، يتطاول نحو السماء. لم ترَ سميتا مثله قط. تيرومالا هي عالمٌ قائمٌ بحدّ ذاته، مأهولٌ بأكثر من مدينة. وكما يقتضي التقليد، لا يبيعون فيه كحولاً ولا لحوماً ولا لفافات تبغ. يدخلون إليه بعد شراء بطاقة - الأقل ثمناً تكلّف 12 روبية، يوضّح حاجٌّ مسنٌّ لسميتا. حشدٌ لا يُحصى يتدافع أمام الكوى التي يظهر وراءها من حين لآخر وجه. تُدرك عندئذٍ أنَّ هذا الطريق المؤلم لم يكن إلّا شعوراً مسبقاً لما ينتظرهما. سيترتب عليهما الانتظار ساعات قبل أن يأملا بالدخول إلى حرم المعبد.

تأخّر الوقت، وبدأ الليل يُخيّم. تحتاج سميتا إلى الراحة. يجب أن تنام قليلاً، أو على الأقل أن تحاول. وبين العديد من بائعي الورود والأشياء السياحيّة الذين يتزاحمون قرب أبواب المعبد، يتقدّم رجلٌ نحوها. لاحظَ هيئتها اليائسة وتَعَبها الشديد. توجد عنابر مجّانيّة مخصَّصة لنوم الحجاج، يقول لها. يمكنه أن يدلّها على الطريق. يتفرّس فيها ويركز على لاليتا. سيصحبهما إلى هناك مقابل هبة أو هبتين. تمسكُ سميتا ابنتها وتبتعد معها بخفَّةٍ عن هذا المُقْتَنِصْ. لكنَّ وجهه كان لطيفاً كأنَّه وجه ملاك... سَرَت في أوصالها رعدة لفكرة قضاء الليل في الخارج؛ امرأتان وحيدتان ستكونان فريستين سهلتين. عليهما أن تجدا مأوى في هذا الليل. إنَّها مسألة بقاء. على طرف الطريق، رجلٌ مقدّسٌ يرتدي رداءً أصفر، لون الرهبان الفيشنويين، يحدِّد لها الاتجاه لتتبعه.

كان العنبر الأول مغلقاً، الثاني يعلن أنَّه امتلأ. عند مدخل العنبر الثالث تخبرها امرأة عجوز أنَّه لم يتبقَّ إلّا سرير واحد. لا يهم. ولفرط ما تقاسمتا، تشعر سميتا ولاليتا أنَّهما ليستا إلّا واحداً. تدخلان إلى الصالة القديمة التي تصطفُّ فيها عشرات المراقد البسيطة، تستلقيان إحداهما مقابل الأخرى، ورغم الهرج والمرج السائد، تغطان في نومٍ عميق.

سـارة

مونتريال، كندا.

لم تغادر سارة سريرها منذ ثلاثة أيام.

بالأمس، اتصلَت بالطبيب لتطلبَ منه توقفاً عن العمل - هو الأول في مهنتها. لا تريد أن تعود إلى المكتب. لم تعُد تحتمل هذا النفاق، وهذا الإقصاء الذي يستهدفها.

في البداية وُجِدَ الإنكار وعدم التصديق. ثم استولى عليها الغضب وغيظٌ غير منضبط. تلاه إحباطٌ لانهائي، مثل امتدادٍ صحراوي شاسع لا مخرج له.

كانت سارة دوماً سيدة خياراتها وتوجّهات حياتها، كانت **امرأة تنفيذيّة** كما يُقال هنا، حرفيّاً **«شخصٌ له موقعٌ مهيمنٌ في مشروع أو شركة، يتخذ القرارات وينفّذها»**. ومن الآن فصاعداً، ستعاني.

تشعر أنَّهم خانوها، مثل امرأة منكوبة طردوها لأنَّها لم تُقدِّم ما هو مُنْتَظرٌ منها، ولأنَّهم حكموا عليها أنها غير جديرة وغير كفؤة وعقيمة.

هي التي تغلَّبت على السقف الزجاجي الذي يعيق وصول النساء إلى المراتب العليا تصطدم اليوم بهذا الجدار غير المرئي الذي يفصل عالم الأصحاء عن عالم المرضى والضعفاء والمكلومين، الذي أصبحت تنتمي إليه من الآن فصاعداً. جونسون وأصدقاؤه يهمّون الآن بدفنها. ألقوا جسدها في حفرة ويدفنونه ببطء، بمجارف ممتلئة بالابتسامات، وبضربات قويّة من التعاطف المرائي. مهنيّاً، هي ميتة. تعرف ذلك. وكما في كابوس، تشهد وهي عاجزة جنازتها الخاصّة. ورغم أنها صرخت وصاحت أنَّها موجودة، حيّة في نعشها، إلّا أنَّ أحداً لم يسمعها. تتخذ محنتها مظاهرَ حلم يقظة.

يكذبون، جميعهم بلا استثناء. يقولون لها **كوني قويّة**، يقولون لها **ستتجاوزين المحنة**، يقولون **نحن معكِ** لكنَّ تصرّفاتهم تشير إلى العكس. تركوها تسقط. ومثل تلك الأشياء المهترئة التي يُلْقُونها في النفايات، أُقْصِيَتْ ونُفِيَتْ.

هي التي ضحّت بكلّ شيء في العمل يُضَحَّى بها اليوم على مذبح الفعاليّة والمردود والأداء. هنا، إمّا أن يتقدّم المرء أو يموت. فلتذهب إذاً إلى الموت.

لم تنجح خطّتها. انهار جدارها، نَسَفَهُ طموح إيناس، وفوقه طموح كورست، بمباركة من جونسون. كانت تظنُّ أنَّه سيدافع عنها، أو على الأقل سيحاول. تَخَلَّى عنها دون أسف. انتزعَ منها الشيء الوحيد الذي كان يجعلها واقفة، الوحيد الذي كان يهبها القوّة لتنهض صباحاً: أناها الاجتماعيّة، حياتها المهنيّة، وشعورها بأنَّها كائنٌ في هذا العالم ولها مكانتها فيه.

وما كانَت تخشاهُ حدثَ في نهاية المطاف: أصبحَت سارة هي سرطانها. إنَّها هي ورمها المشخّص. لم يعُد يرى فيها الناس امرأة في الأربعين من عمرها، لامعة، أنيقة وسباقة، وإنَّما صارت تجسيداً لمرضها. بالنسبة لهم لم تعُد محاميّة مريضة، إنَّها مريضة محاميّة. وشتان ما بين الاثنين. السرطان يثير الخوف. يُقْصِي ويُبْعِد. ينشر رائحة الموت. وعند الاحتكاك به، يُفضل الناس تغيير اتجاههم وسدِّ أنوفهم.

منبوذة، هذا ما آلت إليه حالُ سارة. مجردة من الحقوق المدنيّة.

لذلك لا، لن تعود إلى هناك، إلى تلك الحلبة التي أدانتها. لن يرونها تسقط. لن تجعل من نفسها فُرجة ولن تقدِّمها طعاماً للأسود. لم يزل لديها هذا: كرامتها. والقدرة على أن تقول لا.

هذا الصباح لم تلمس طبق الإفطار الذي حَضَّرَه رون لأجلها.

جاء التوأم وقبّلاها، واندسا في فراشها. لم تتأثر حتى من ملامسة جسديهما الصغيرين الدافئين والغضين. توسَّلت لها هانا كثيراً وبذلت ما بوسعها لتجعلها تنهض. شجَّعتها، هدّدتها، أشعرتها بالذنب، دون جدوى. تعرف أنَّها ستجد أمّها على الحالة ذاتها عند عودتها مساءً إلى المنزل.

تقضي سارة أيامها على هذا النحو، في وهنٍ مرضي، وخمولٍ متزايد. تنحرف ببطء بعيداً عن العالم. تستعرض فيلم الأسابيع الأخيرة، وتتساءل ما عساها تفعل لتغيير مساره. لا شيء، بالتأكيد. استمرّت اللعبة من دونها. انتهى دورها. انتهى.

ظنّت أنَّها قادرة على الزعم بأنَّ كلّ شيء يسير على ما يرام وأنَّ شيئاً لن يتغير وأنَّها قادرة على المحافظة على حياة طبيعيّة، وعلى تجاوز الصعوبات والتماسك والتظاهر. كانت تفكّر بإدارة المرض كملف، بمنهجيّة ومثابرة وإصرار. وهذا لم يكفِ.

فيما يشبه حلم يقظةٍ، تتخيّل ردَّ فعل زملائها على خبر موتها. إنَّها فكرة مروعة لكنَّها تروق لها، مثلما يختار المرء أحياناً الإصغاء إلى لحنٍ حزين حين يتملّكه الأسى. وها هي ترى هيئتهم المحزونة ووجوههم تصطنع الأسى. سيقولون: **كان الورم خبيثاً**، أو: **كانت تعرف أنَّه لا أمل بشفائها**. سيقولون: **كان الأوان قد فات**، أو الأسوأ: **لقد أطالت انتظارها**، ويُحَمِّلونها بهذه الطريقة مسؤولية

مصيرها إن لم يكُن إثمه. أمّا الحقيقة فهي في مكان آخر. ما يقتل سارة كوهن ويُعَذّبها على نارٍ هادئة، ليس الورم الذي استولى على جسدها فقط ويقود رَقْصَهُ، رقصٌ قاسٍ بحركات غير متوقّعة، لا، ما يقتلها أيضاً هو تَخَلّي أولئك الذين اعتبرتهم أصدقاءها في المكتب الذي أسهمت في شهرته. كان ذلك سبب وجودها ومعنى حياتها **والإيكيغاي**(*) الخاص بها كما يقول اليابانيون: من دونه، لا يَعود لسارة وجود. تصبح كائناً مُجَوَّفاً، فارغاً من جوهره.

تدهشها أيضاً سذاجتها. هي مَن كانت تخشى أن يبلبل مرضها المكتب، تواجه حقيقة أقسى: يعمل بكفاءة ممتازة من دونها. سيطلقون تسميَة جديدة على موقف سيارتها، كما على مكتبها، وسيتصارعون للحصول على اللقب. وهذه الفكرة تُضنيها.

طبيبها القلق وصف لها مضادات اكتئاب. برأيه الاكتئاب -هو- حالة-من ردّة الفعل-الشائعة-عند-الإعلان-عن-مرض-خطير. إنَّه-عامل-للتطور-لا يلائم-السرطان. عليها-أن-تتماسك. أبلهٌ تماماً، فكَّرَت سارة. ليس هي المريضة، وإنَّما المجتمع بكامله هو ما ينبغي معالجته. إنَّه يدير ظهره للضعفاء الذين كان يجب عليه أن يحميهم ويرافقهم، كما يفعل قطيع الفيلة حين يترك الفيلة الطاعنة في السن

(*) الإيكيغاي: مفهوم يشبه مفهوم السعادة، لكن هناك فرق كبير بينهما، يكمن في أنّ مفهوم إيكيغاي يسمح للمرء أن يتطلّع إلى مستقبل مشرق، حتى لو كانت ظروفه بائسة في الوقت الذي يتطلع فيه. (المترجم)

وراءه ويحكم عليها أن تموت وحيدة. قرأت ذات يوم في كتاب للأطفال عن الحيوانات هذه العبارة: «الحيوانات المفترسة مفيدة للطبيعة لأنَّها تلتهم الضعفاء والمرضى» أخذَت ابنتها تبكي. واسَتْها سارة، وقالت لها إنَّ البشر لا يخضعون لهذا القانون. كانت تحسبُ نفسها في الجانب الخيِّر، من عالمٍ متحضِّر. كانت مخطئة.

يمكنه أن يصفَ لها ما يشاء من الأقراص، فهي لن تُغير شيئاً، أو ستغيّر النزر اليسير. سيكون هنالك دوماً أمثال جونسون وكورست ليجعلوها تضع رأسها تحت الماء.

عصابة قذرين.

غادر الأطفال، وأصبح البيت صامتاً من جديد. تنهض سارة وتمشي نحو الحمام، هذا كلّ ما يمكنها أن تفعله في الصباح. في المرآة، بشرتها شاحبة مثل قصاصة ورق شفافة جداً إلى درجة يبدو معها أنَّ الضوء يخترقها. أضلاعها بارزة. وساقاها كالعيدان، جاهزتان للكسر عند أيّة زلة قدم، مثل عيدان الثقاب. كانت ساقاها سابقاً مشيقتين، وردفاها مشدودين في تنانير مفصّلة بأناقة، وكان عُرِي كتفيها سلاح إغراء حقيقي. كان ذلك واقعاً: سارة تثير الإعجاب. كان القليل من الرجال يصمدون أمامها. خاضت مغامراتها وقصصها، وحتى حظيت بحبيبين - زوجاها، لا سيما الأول، الذي أحبّته حبّاً جماً. من سيجدها جميلة اليوم، بسحنتها الباهتة وجسدها الناحل الهزيل، في هذا السروال الفضفاض الذي

يعوم على جسدها مثل رداء شبح؟ يقوم المرض بعمله في تقويضها، وعمّا قريب سيجعلها تقتصر على استخدام أمتعة ابنتها - ذات الاثني عشر عاماً، هذا كلّ ما سيسعها ارتداءه، مقاسُ طفل. أيُّ لهبٍ يمكنها أن توقد في هذه الحالة؟ وفي عينَيّ مَن؟ في هذه اللحظة، تقول سارة في سرّها إنَّها مستعدّة لتقديم أيّ شيء حتى يحتضنها شخصٌ ما بين ذراعيه. لتشعُرَ أنَّها امرأة، ولو لبضع ثوان، في أحضان رجل. سيكون ذلك عذباً للغاية.

ثديٌ ناقصٌ - في البداية لم تشأ الاعتراف بذلك، ولا بالألم ولا الحزن. وكما هو دأبها دوماً، وضعَت حجاباً على هذا الشيء في محاولة يائسة لإخفائه خلف ستار. تُرَدِّدُ في سرها بأنَّ هذا ليس شيئاً، فالجراحة التجميليَّة تصنع المعجزات. مع ذلك بدت لها الكلمة في غاية القبح: **استئصال**، كلمة لها وقع عقاب، عدوان، تشويه، بتر، هدم. وربما أيضاً شفاء، إنْ حالفها الحظ. مَن يسعه أن يعدها بذلك؟ حين علمت هانا بمرضها، أبدَت حزناً فائقاً. فكّرتْ لبرهة وقالت هذه العبارة: **أنتِ أمازونيّة يا أمي**. كانت قد كتبت منذ فترة طويلة موضوعاً بهذا الشأن وقد صحَّحته سارة. لا تزال تتذكَّر منه:

«**أمازون**: مشتقَّة من اللغة الإغريقية مازوس: **ثدي**، مسبوق بحرف (آ) ويعني **محروم من**. إنهنَّ نساء من العصور القديمة كنَّ يقطعن الثدي الأيمن ليستخدمن القوس بمهارة أكبر. كنَّ يُشَكِّلْن جيشاً من المحاربات والمقاتلات المرهوبات الجانب والمحترمات في آنٍ معاً، يقترنَّ بذكور من القبائل المجاورة لينجبن، لكنهنَّ يربين

أطفالهن وحيدات. وكنَّ يستخدمن رجالاً لأداء الأعمال المنزلية. وقد خضن حروباً عديدة خرجن منها غالباً ظافرات».

في هذه الحرب، سارة ليست واثقة، للأسف، من النصر. فهذا الجسد الذي أَرْهَبَتْه لسنوات وتجاهلته، هذا الجسد الذي أهملته، وحتى جوَّعته أحياناً -لا وقت للنوم ولا وقت للطعام- هذا الجسد يأخذ اليوم بثأره. يُذَكِّرها بقسوة أنه موجود. لم تعُد سارة إلّا شبحاً، بديلاً لها نفسها، صورة شاحبة لِما كانته، تعكسها لها المرآة بلا رحمة.

وأكثر ما يكدِّرها هو شعرها. تفقد منه الآن حفنات. كان طبيب الأورام قد أخطرها بالوحي الكئيب: في الجلسة الثانية من العلاج الكيميائي، سيبدأ بالتَّساقط. وجدَت سارة هذا الصباح عشرات الضحايا الصغيرة على وسادتها. هذا الحدث تخشاه أكثر من أيِّ شيءٍ آخر. تساقطُ الشعر، هو تجسيد للمرض. امرأة صلعاء، هي امرأة مريضة، وحتى لو ارتدت كنزة جميلة وانتعلت كعباً عالياً، وحملت حقيبة آخر صرعة، فلن يلاحظهم أحد، ولن يوجد شيء سوى هذا، هذه الجمجمة العارية هي إقرار واعتراف وألم. رجلٌ حليقٌ قد يكون مثيراً، أما امرأة صلعاء فهي على الدوام مريضة، تُفَكِّر سارة.

سيأخذ السرطان منها كلَّ شيء إذاً: مهنتها وشكلها وأنوثتها.

تفكِّر في والدتها، التي هزمها المرض ذاته. تقول في سرِّها

حينئذٍ إنَّ عليها أن تأوي إلى سريرها وتموت في صمت وتلحق بها إلى هناك، في مُسْتَقَرِّها تحت التراب، وتشاركها راحتها الأبديَّة. إنه تفكيرٌ مرضيٌّ لكنَّه مريح. من اللطيف أحياناً التفكير بأنَّ لكلِّ شيء نهاية وأنَّ أعظم العذابات قد تتوقَّف غداً.

حين تفكِّر في نفسها، فإنَّ أناقتها هي ما تخطر ببالها. حتى حين ضَعُفَت أمُّها، لم تخرج قطّ دون أن تضع المساحيق وتصفِّف شعرها وتطلي أظافرها. الأظافر، إنها تفصيلٌ مهم، كانت تقول غالباً: لا بدَّ من العناية دوماً باليدين. بالنسبة إلى الكثيرين، لم يكن هذا ذا شأن، إنه تأنّق، وتفاهة، لكنه بالنسبة لها علامة وإشارة تعني: لم أزل أقضي وقتاً في الاهتمام بنفسي. إنني امرأة نشيطة، زاخرة بالحيويَّة، لدي مسؤوليَّات وثلاثة أبناء و(سرطان)، ويلتهمني اليومي لكنني لم أستسلم ولم أختفِ، إنني هنا، موجودة دوماً، بكامل أنوثتي وأناقتي، انظروا إلى أطراف أناملي، إنَّني هنا.

سارة هنا. أمام المرآة، تنظر إلى أظافرها التَّالفة وشعرها المشعَّث.

تشعرُ عندئذٍ أنَّ شيئاً ما يهتزُّ في أعماقها، كأنَّ جزءاً صغيراً جدّاً من كيانها يرفض الركون للإدانة. لا، لن تتوارى. لن تستسلم.

أمازونيّة، تلك هي حالها. محاربة، مقاتلة. أمازونية لا تستسلم. تُقاتل حتى النَّفَس الأخير. ولا تهرب أبداً.

يجب أن تعود إلى المعركة، وتستأنف كفاحها. باسم أمِّها وباسم ابنتها وولديها الذين يحتاجونها. باسم جميع تلك الحروب التي خاضتها. عليها أن تستمرَّ. لن تستلقي في هذا السَّرير ولن تستسلم لهذا الموت الصغير الذي يفتح لها ذراعيه. لن تدفن نفسها. ليس اليوم.

ترتدي ملابسها بسرعة. ولكي تُخفي شعرها، تتناول قبعة من الخزانة - إنَّها قبعة طفل منسيّة هناك، عليها صورة بطل خارق. لا يهمّ، ستدفئها.

هكذا تخرج من المنزل بعد أن ارتدت ملابسها. في الخارج، يتساقط الثلج. تدثّرت بمعطف فوق ثلاث كنزات ارتدتها بعضها فوق بعض. وهي تلبس على هذا النحو، تبدو في غاية الضآلة، مثل خروف أسكتلندي، ينوء تحت وطأة صوفه المتشابك.

تغادر سارة المنزل. لقد قررَت ذلك هذا اليوم.

وهي تعرف بالضبط أين تذهب.

جوليا

باليرمو، صقلية.

الإيطاليون يريدون شعراً إيطاليّاً.

سقطت الجملة كشفرة مقصلة. في صالون منزل العائلة، اقترحَت جوليا منذ قليل على أمّها وأخواتها مشروعها في استيراد الشعر الهندي لإنقاذ الورشة.

في الأيام السابقة، عملَت بلا كلل لتجهيز خطتها. قامَت بدراسة السوق، وأعدَّت ملفّاً للمصرف - لا بد من الاستثمار حتماً. عملَت ليلاً ونهاراً، وأهملَت نومها لكن لا يهم: تشعر أنَّها تَوَلَّت مهمة شبه إلهيّة. لا تعرف من أين تأتيها هذه الثقة، هذه الطاقة المفاجئة. أهو الحضور العطوف لكمال إلى جانبها؟ أهو أبوها، من أعماق غيبوبته، يعطيها قوتها وإيمانها؟ تشعر جوليا أنَّها مستعدّة لترفع الجبال، من سلسلة جبال الأبنين حتى جبال الهيمالايا.

ليست شهوة الربح هي التي تُغريها، إنَّها في غنى عن الملايين التي يتباهى بها الرجل الإنكليزي، وليست بحاجة إلى حوض سباحة أو طائرة مروحيّة. كلّ ما تريده هو إنقاذ ورشة أبيها وحماية أسرتها.

هذا لن ينجح، تقول **الماما**. تَمَوَّنَ آل لانفريدي دوماً من صقلية، **والكاسكاتورا** هي عادة قديمة هنا. ولا يمكن خرق التقاليد بلا عاقبة، تؤكد.

تُجيب جوليا بأنَّ التقليد سَيُضَيِّعُهم. الحسابات حاسمة: سَتُقفل الورشة خلال شهر على الأكثر. يجب إعادة التفكير بسلسلة الإنتاج، والانفتاح على العالميّة. يجب الإقرار بأنَّ العالم يتغيّر، وأن نتغيّر معه. فالمشاريع الأسريّة التي ترفض التطوير تُغْلِقُ تباعاً في البلد. اليوم ينبغي النظر إلى البعيد ما وراء الحدود، إنَّها مسألة بقاء على قيد الحياة! التطوير أو الموت، ليس هنالك خيار آخر. وهي تتحدّث، تشعر جوليا أنَّ أجنحة نبتت لها، كما لو أنَّها أصبحت محاميّة أمام قوس محكمة كبيرة وترافع في قضيّة مهمة. هذه المهنة سحَرَتها دوماً - مهنة مُخصَّصة للناس المثقفين، من المجتمع الراقي. لا يوجد محامي في عائلة لانفريدي. يوجد فقط عمال، لكنَّها لطالما أحبّت الدفاع عن قضايا عظيمة، وأن تصبح امرأة قويّة ومتميزة. يخطر ذلك ببالها أحياناً، وهذه الفكرة ستنضمّ إلى حواف أحلامها المنسيّة.

وبحماسة، تسرد جوليا نوعيّة الشعر الهندي، باعتراف عدد من

الخبراء: إذا كان الآسيوي هو الأمتن، والأفريقي هو الأضعف، فإنَّ الهندي هو الأفضل، سواء من حيث تصفيفه أو إمكان صبغة. وما إن يُزَال لونه ويُصْبَغ، حتى يُشَابه تماماً الشعر الأوروبي.

تنخرط فرنشيسكا في النقاش: تتفق مع أمّهم، فهذا لن ينجح أبداً. ولن يحبّذ الإيطاليّون الشعر المستورد. لا تتفاجأ جوليا. فأختها تنتمي إلى حلقة المتشككين، إلى أولئك الذين يرون العالم أسود أو رماديّاً، أولئك الذين يجيبون بِلا قبل أن يفكّروا بنعم. أولئك الذين يرون التفصيل المزعج وسط منظر طبيعي، والبقعة الصغيرة جداً على سماط المائدة، أولئك الذين يتفحّصون ظاهرَ الحياة بحثاً عن فظاظة ينبشونها كأنَّهم يستمتعون بهذه الانتقادات الزائفة للعالم التي يجعلون منها مبرراً لوجودهم. إنَّها صورة مقلوبة عن جوليا، نسخة سلبيّة عنها، بالمعنى الفوتوغرافي للكلمة: درجة كثافتها الضوئيّة تتناسب عكساً مع درجتها هي.

إذا لم يرغب الإيطاليون به، سينفتحون على أسواق أخرى، تجيب جوليا: على الأسواق الأميركية والكنديّة. العالم كبير ويحتاج إلى الشَّعر! فالوصلات والإضافات والباروكات هي قطاعٌ في توسّع دائم. يجب ركوب الموجة بدل الاستسلام للغرق.

لم تُوفِّر فرنشيسكا على جوليا شكوكها ولا ريبتها. عبَّرَت الأخت الكبرى عن رأيها بصراحة. كيف تنوي القيام بهذا الأمر؟ هي

التي لم تغادر إيطاليا قط، وحتى لم تستقلّ طائرة من قبل؟ هي التي تتوقّف حدود أفقها عند ضواحي خليج باليرمو، كيف ستنجح في خوض هذه التجربة القاسية؟ وتحقيق هذه المعجزة؟

لكنَّ جوليا تريد أن تصدّق حلمها. الإنترنت ألغى المسافات، والعالم بين أيديهم الآن، مثل هذه الكرة المضيئة التي تلقينها وهنَّ صغيرات. الهند قريبة جداً، شبه قارة على أبوابهم. درست الأسعار بإسهاب، وتعرف تقلّباتها، ومشروعها ليس مستحيلاً. يتطلّب فقط الشجاعة والإيمان. وهم لا ينقصانها.

لم تقُل أديلا شيئاً. وهي جالسة في زاوية، تراقب أختيها تتجابهان - وفي جميع الأحوال، تُحافظ على حيادها ولا تبالي بما يحدث في العالم، وباختصار: مراهقة.

يجب إغلاق الورشة وبيع العقار، تستطرد فرنشيسكا. سيسمح هذا بتسديد جزء من الرهن العقاري للمنزل. وممَّ سنعيش؟ تجيب جوليا. هل تظنّ أنَّه من السهل إيجاد عمل؟ والعاملات؟ هل فكّرت بهنَّ؟ ما مصير هؤلاء النسوة اللاتي عملنَ لأجلهنَّ طيلة هذه السنوات؟

يتحوّل النقاش إلى مواجَهة. تعرف **الماما** أنَّ عليها أن تبتّ في الأمر وتفصل بين ابنتيها اللتين دوّت أصواتهما في المنزل. لم

تتفاهما قط، تفكّر بمرارة، ولم تتفقا قط. ليست علاقتهما إلّا سلسلة نزاعات، وهذا النزاع هو ذروتها. يجب أن تقرّر لتفصل بينهما.

حقّاً يجب التفكير بالعاملات، تقول، إنَّها مسألة شرف واحترام. لكنَّ فرنشيسكا محقة في هذه النقطة: **الإيطاليون يريدون شعراً إيطالياً**.

هذه الجملة تعلن نهاية مشروع جوليا.

تغادر المنزل وهي مغمومة. كانت تعرف أنَّه سيترتب عليها أن تقاتل من أجل مشروعها، لكنَّها لم تكن تتصوّر مثل هذه المعارضة. تشعر كأنَّها بعد ليلة عيد، مشمئزّة ومتحرّرة من أوهامها. من دون موافقة أمّها وأخواتها، لن يسعها فعل شيء في الورشة. لقد داسوا للتو على مشروعها. تَبَدَّدَ حماسُها الجامح، وأَفْسَحَ المجال للشك والخوف.

سَتَجِدُ ملاذاً في المشفى، قرب سرير والدها. ماذا كان عساه أن يقول؟ وماذا كان عساه أن يفعل؟ كانت تودُّ لو تلوذ بين ذراعيه وتبكي مطولاً، مثل طفلة. يتزعزع إيمانها الآن. لم تعُد تدري ما يترتب عليها فعله، تثابرُ على هذا المشروع أم تدفنه وتحرقه على مذبح العقل باسم هذه التقاليد التي تموت ببطء؟ إنَّها مُحْبَطَة ومُنْهَكَة، وفي غاية الإرهاق من ليالٍ أمضتها بلا نوم لدرجة أنَّه كان

بمقدورها أن تنام هنا، على هذا السرير، بجانب **البابا**. تنام مئة عام، مثله، ذلك ما كانت تريده.

تغمض جوليا عينيها.

تجد نفسها فجأة في الأعلى، على السقف، في المختبر. أبوها هناك، يجلسُ أمام البحر، كما فيما مضى. لا يبدو أنَّه يتألم. يبدو هادئاً ووديعاً. يبتسم لها كما لو أنَّه كان ينتظرها. تجلسُ جوليا الآن بجانبه. تُحَدِّثه عن عذاباتها وحزنها، وهذا الشعور بالعجز الذي يخنقها. تقول له إنَّها آسفة بشأن الورشة.

لا تدعي أحداً يَحرفك عن طريقك، يُجيبها. يجب أن تحافظي على إيمانك. إرادتكِ عظيمة. إنني مؤمن بقوتكِ وقدراتكِ. يجب أن تستمرّي. فالحياة تخبئ لكِ أشياء عظيمة.

يدوّي ضجيجٌ حادٌّ. تستيقظ جوليا مذعورة. لقد نامَت هناك، بجانب والدها، على سريره في المشفى. حوله، أخذَت الأجهزة التي تبقيه على قيد الحياة ترنُّ، تهرع الممرضات إلى سريره.

في هذه اللحظة، في هذه اللحظة بالتحديد، تشعر جوليا أنَّ يد أبيها تتحرّك.

سـميتا

معبد تيروباتي، أندرا براديش، الهند.

يبزغُ الفجرُ على جبل تيرومالا.

انضمّت سميتا ولاليتا إلى رتل الحجاج أمام مدخل المعبد. يتقدم طفل ويناولهما **اللادوس**، معجّناتٌ مكوّرة ومحضّرة من فاكهة مجفّفة وحليب مركّز. وزنها وتركيبتها مُقَنْوَنَة - فالوصفة أملاها الإله نفسه، يوضّح. يَطْهوها **الأشاكس** داخل المعبد، هؤلاء الكهنة أباً عن جد يقدمونها للحجاج. التهامُها هو جزء مكمِّل لسيرورة التطهير. تشكر سميتا الله على هذه الوجبة السماوية. تشعر أنَّها على استعداد لجميع التضحيات بعد أن خلدت لبضع ساعات إلى النوم وتذوّقت حلاوة هذه **اللادوس**. لم تُخبر لوليتا بعد ما ينتظرهما في الداخل. وإذا كان الأكثر ثراء يقدّمون قرابين من الطعام والأزهار والمجوهرات والذهب والأحجار الكريمة، فإنَّ الأفقر يهبون للورد فينكاتيسوارا الثروة الوحيدة التي يملكونها: شعرهم.

إنَّه تقليد عريق في القِدَم: التبرع بالشعر، هو تخلّي عن كلّ شكل من أشكال الأنا، والقبول بالمثول أمام الله بالمظهر الأكثر تواضعاً والأكثر عُريّاً.

بعد أن دخلتا إلى المعبد، تدلف سميتا ولاليتا إلى الممرات المُسَيجة حيث ينتظر الآلاف من الداليت أياماً بكاملها - يطول الانتظار حتى الثمانية والأربعين ساعة، يوضح رجل جالس على الأرض عند المدخل. يمكن للأثرياء أن يشتروا بطاقاتٍ للمرور بسرعة. أُسَرُّ بكاملها تنام هنا حتى لا تفقد دورها. بعد أن أمضيتا ساعات طويلة في هذه الأقفاص المؤقتة، تصلان إلى **الكالياناكاتا**، وهو بناء عملاق من أربعة طبقات يعمل فيه مئات الحلاقين. مملكة نمل حقيقيّة تعمل ليل نهار. أكبر صالون للشعر في العالم، يُقال هنا. سعر الحلاقة هو 15 روبيّة، تعلم سميتا. حتماً لا شيء مجاني، تفكّر.

على مدِّ النظر في القاعة الفسيحة، رجال ونساء يحملنَ أطفالهنَّ الرضع في أحضانهنَّ وأطفالٌ وعجائز يمرّون تحت شفرات الحلاقين، وهم يرتلون صلاة موجّهة للإله فيشنو. تشعر لاليتا بالخوف لدى رؤية هذه السلسلة من مئات الرؤوس محلوقة. وتبدأ بالبكاء. لا تريد أن تقدّم شعرها فهي تحبّه حبّاً جمّاً. وكشكلٍ من أشكال الدفاع، تضم إليها دميتها، هذه اللعبة الصغيرة الرثة التي لم تتخلَّ عنها خلال الرحلة. تميلُ سميتا نحوها وتهمس في أذنها برفق:

لا تخافي.
إنَّ الله معنا.
سينمو شعرك. وسيصبح أجمل من ذي قبل.
لا تجزعي. سأمرُّ قبلك.

يُهَدِّئ صوت أمّها العذب من روعها. تراقب الأطفال الذين جُزَّ شعر رؤوسهم للتو؛ يمرّرون أيديهم على رؤوسهم ضاحكين. لا يبدون متألمين - بالعكس. يبدو أنَّهم يتسلون بمظهرهم الجديد. أمهاتهم، برؤوسهنَّ الملساء أيضاً، يدهنونهم بزيت الصندل، وهو سائل أصفر يُفْتَرَضُ أنَّه يحمي الجلد من الشمس والالتهابات.

جاء دورهما. يشير الحلاق إلى سميتا أن تتقدّم. فتذعن بورع. تركع وتغمض عينيها وتبدأ بتلاوة الصلاة بصوت خافت. ما تهمسُ به لفيشنو، هنا، وسط هذه الصالة الفسيحة، هو سرّها. إنَّها لحظة تخصّها وحدها فقط. فكّرَت فيها طيلة أيام؛ وتفكّر فيها منذ سنوات.

يقوم الحلاق بمناورة سريعة لتغيير الشفرة - مديرُ المعبد صارم في هذا الشأن، شفرة لكلّ حاج، هذه هي التعليمات. في أسرته، الحلاقة مهنة موروثة أباً عن جَد، منذ أجيال. كلُّ يوم يقوم بالحركات ذاتها ويكررها مراراً وحتى يحلم بها ليلاً. تتخيّل بحوراً ومحيطاتٍ من الشعر يغرق فيها أحياناً. يطلب من سميتا أن تضفر

شعرها فهذا سيسهل جزّه وجمعه. ثمَّ يرشه بالماء ويبدأ بالحلاقة. تلقي لاليتا نظرة قلقة على أمّها، لكنَّ سميتا تبتسم لها. فيشنو معها. إنَّه هنا، قريب جداً.

يباركها.

وبينما تتساقط الخصلات، واحدة تلو الأخرى، عند قدميها، تغمض سميتا عينيها. هناك الآلاف حولها، في الوضعيّة ذاتها، يُصَلُّون من أجل حياة أفضل، يهبون الشيء الوحيد الذي حباهم به العالم، هذا الشعر، هذه الزينة الرائعة، هذه الهديّة التي تلقّوها من السماء ويردّونها إليها، هنا، وهم راكعون وأيديهم مضمومة على أرض **الكاليانا كاتا**.

حين تفتح سميتا عينيها من جديد، تكون جمجمتها ملساء مثل بيضة. تنهض وتشعر فجأة بخفّةٍ لا تصدَّق. إنَّه إحساسٌ جديد، مبهجٌ تقريباً. تسري رعدة في أوصالها. تراقب شعرها القديم عند قدميها، كومةٌ سوداء صغيرة، كأنَّها بقيّة منها ذاتها، أصبحَت ذكرى. أصبح جسدها وروحها طاهرين الآن. تشعر بأنَّها مُطْمَئِنَّة ومُبَاركة ومحميّة.

تتقدّم لاليتا بدورها أمام الحلاق. ترتعش ارتعاشاً خفيفاً. تُمسك سميتا يدها. وهو يبدّل الشفرة، يلقي الرجل نظرة إعجاب على ضفيرة الفتاة التي تنسدل حتى خصرها. شعرها رائع وحريري وكثيف. عيناها في عيني ابنتها، تتمتم سميتا معها الصلاة التي رتَّلتاها مراراً أمام المذبح الصغير، في كوخهم في قرية بادلابور.

تفكّر في وضعهما، وتقول في سرّها إنَّهما فقيرتان اليوم، لكن ربما ستقتني لاليتا يوماً سيارة. هذه الفكرة تجعلها تبتسم وتمنحها القوّة. حياةُ ابنتها ستكون أفضل من حياتها، بفضل هذا القربان الذي تقدّمانه هنا، اليوم.

مكتبة

عند الخروج من **كاليانا‌كاتا**، يُبهرها الضوء. من دون شعر، أصبح وجهاهما أكثر تشابهاً من ذي قبل، وأكثر من أيّ وقت مضى. على هذا النحو، تبدوان أكثر شباباً، وأشدّ نحفاً. تُمسك كلٌّ واحدة منهما بيد الأخرى وتتبادلان الابتسام. لقد وصلتا إلى هنا. تحقَّقَت المعجزة. سميتا تعرف ذلك. فيشنو سيَفي بوعوده. في تشيناي. أولاد خالتها ينتظرونها. غداً، تَبدأ حياة جديدة.

وهما تبتعدان نحو المعبد الذهبي، ويد ابنتها في يدها، لا تشعر سميتا أنَّها حزينة. لا، حقاً، ليست حزينة، لأنَّها واثقة من شيء واحد: من قربانهما، سيعرف الله أنَّهما أظهرتا عرفانهما بالجميل.

جوليا

باليرمو، صقلية.

«كانوا لا يعرفون أنَّه أمر مستحيل، لذلك فعلوه».

تتذكّر جوليا هذه العبارة لمارك توين، لقد قرأتها وهي صغيرة وأعجبتها. تفكّر فيها اليوم وهي تنتظر على موقف السيارات في مطار فالكوني - بورسولينو. كانت متأثرة، وهي تنتظر الطائرة القادمة من نهاية العالم، وتحمل أول شحنة شعر.

لم يستيقظ **البابا**. توفي ذلك اليوم في المشفى، حين كانت بجانبه، بعد الحلم الغريب الذي ستتذكّره طيلة حياتها. في لحظة رحيله، اعتصر يدها، كأنَّه يقول لها وداعاً، كأنَّه يقول لها: هيّا، انطلقي. سلّمها الراية قبل أن يرحل. تعرف جوليا ذلك. وبينما يحاول الأطباء إنعاشهُ، تعدُه أنَّها ستنقذ الورشة. إنَّه سرٌّ بينها وبينه.

حرصت على تنظيم تأبين ديني في الكنيسة التي كان يحبُّها. احتجّت أمُّها - فالمكان أصغر من أن يتسع لجلوس جميع الناس، تقول. كان لدى بيترو كثير من الأصدقاء، وكان شعبيّاً، وهناك أيضاً جميع أفراد عائلته، القادمين من جميع أنحاء صقلية، ومن ثم عاملاته... لا يهم، قالت جوليا، من يحبونه يبقون واقفين. انتهت الأمّ إلى الإذعان.

منذ بعض الوقت، لم تعُد تعرف ابنتها. جوليا بالعادة رزينة جداً، في غاية الرصانة، ومطيعة، لكنَّها صارت تبدو عنيدة على نحوٍ مدهش. استولت عليها عزيمة جديدة. في معركتها لإنقاذ الورشة، رفضَت الخضوع. وللخروج من المأزق، اقترحَت تنظيم استفتاء بين العاملات. سبقَ أن حدث الأمر ذاته في أماكن أخرى، قالت، في مواقع أخرى مُعَرَّضَة للتهديد. علاوة على ذلك، من العدل الإنصات لرأيهنَّ. فالأمر يخصهنَّ أيضاً. اقتنعت أمُّها بالأمر، ووافقَت أخواتها.

وحتى لا تتأثر الأصغر سناً منهنَّ بالأكبر سناً، تقرَّر إجراء التصويت ببطاقات اقتراع سرّيّة. دُعِيَت العاملات للاختيار بين توجّهٍ جديدٍ للورشة يتضمن استيراد الشعر الهندي أو إغلاقها والتفاوض على تسريحٍ يمنحهنَّ تعويضاً هزيلاً. بالتأكيد ينطوي الحلّ الأول على مخاطر واحتمالات لم تُخْفِ جوليا بعضها عنهنَّ.

جرى التصويت في قاعة الورشة الكبيرة. كانت **الماما** موجودة كما - فرنشيسكا وأديلا. جوليا مَن بادرت إلى فرز الأصوات. فتحت كلّ ورقة من الأوراق الملقاة في قبعة **البابا** بيد مرتعشة - هي من خطرت ببالها الفكرة، كامتنان أخير تردّه لأبيها. **هكذا، سيكون بيننا اليوم لوقت قصير**، قالت.

سبعة أصوات مقابل ثلاثة. أغلبية ساحقة. ستتذكر جوليا هذه اللحظة لزمن طويل. فقد وجدَت صعوبةً في إخفاء فرحها.

بوساطة من كمال، اتصلت بالهند مع رجل يقيم في تشيناي. أنهى دراسة التجارة في الجامعة. يجوب البلد ومعابده بحثاً عن شعرٍ يشتريه. إنَّه صارم في الأعمال، لكنَّ جوليا تَكْشِفُ عن عنادٍ في لعبة التفاوض. **عزيزتي، كأنَّك مارستِ ذلك طيلة حياتك!** تسخر **النونا**.

في سنّ العشرين فقط، تجد نفسها على رأس الورشة: إنَّها اليوم أصغر مقاولة في الحي. استقرَّت في مكتب والدها. غالباً ما تتأمل صورتها على الحائط. بالقرب من صور أجدادها. لم تتجرأ بعد على تأطيرها هناك. سيحدث ذلك.

حين تشعر بالحزن، تصعد إلى الأعلى، إلى السطح، إلى المختبر. تجلس مواجهة البحر وتفكّر في أبيها وفيما كان سيقوله وفيما كان سيفعله. تعرف أنَّها ليست وحيدة. **البابا** إلى جانبها.

اليوم، يقف كمال بجانب جوليا. حرص على مرافقتها إلى

المطار. تقاسما في الآونة الأخيرة أكثر من استراحات الغداء. أظهرَ دعماً دائماً لها، ورحَّبَ بكلّ فكرة من أفكارها، وبدا متحمّساً وخلاقاً ومقداماً. كان حبيبها وأصبح شريكها وموضع ثقتها.

تلوحُ الطائرة أخيراً. وهي ترى هذه النقطة في السماء تكبر رويداً رويداً، تقول جوليا في سرّها إنَّ مستقبلهم كلَّه هناك، في أحد عنابر الشحن في البطن المحدّب لهذه الطائرة. تُمسك يد كمال. يبدو لها في هذه اللحظة أنَّهما لم يعودا كائنين منفصلين في الدروب المحفوفة بالمخاطر، تائهين في تعرّجات الوجود، وإنَّما رجلٌ وامرأةٌ مرتبطان ارتباطاً وثيقاً أحدهما بالآخر. لا يهم ما ستقوله **الماما**، تفكّر جوليا، وأسرتها وسكان الحي. تشعر اليوم أنَّها امرأة بجانب هذا الرجل الذي ألهمها. هذه اليد، لن تتخلّى عنها. وفي السنوات القادمة، ستشدُّ على يدها أغلب الأحيان، في الشارع والمنتزه وعند الأمومة، في النوم والفرح والبكاء وفي أثناء الولادة. هذه اليد ستشدُّ أزرها لزمن طويل.

تهبط الطائرة وتتوقف. وبسرعة تُفَرَّغ الحاويات، وتُرْسَل نحو مركز الفرز حيث ينشط عمال المخازن.

في المستودع، توقِّعُ على إشعار استلام البضاعة العائدة إليها. الطرد موجود أمامها، ليس أضخم من حقيبة. تلتقط مشرطاً وهي ترتعش لتشقَّ بها طرفه. تظهرُ الشعرات الأولى. تُمْسِك جزَّة بلطف: شعرٌ طويل، طويلٌ جداً، أسود فاحم. شعر نساء بالتأكيد، حريري

وكثيف. وبجانبها تماماً جزّة أخرى: أقصر منها، جزّة ناعمة كالحرير أو المخمل، كأنَّه شعر طفلة. اشتروه الشهر الماضي من معبد تيروباتي، أوضح المرسل، أكثر مكان عبادة يرتاده الناس في العالم، وتمتزج فيه جميع الأديان - هذا التفصيل أثَّرَ في جوليا. تفكّر عندئذٍ بأولئك الرجال والنساء الذين لا تعرفهم ولن تلتقيهم أبداً، القادمين ليهبوا شعرهم. قربانهم هو هديّة من الله، تقول في سرّها. تودُّ لو تحتضنهم امتناناً لهم. لن يعرفون أبداً أين ذهب شعرهم، وأية رحلة عجيبة قام بها، وأية ملحمة. مع ذلك، لم تزل الرحلة في بدايتها. وذات يوم، سيعتمر شخصٌ ما في مكانٍ ما هذا الشعر الذي ستنسّقه عاملاتها ويغسلنه ويعالجنه. ولن تخطر ببال هذا الشخص المعركة التي اضطر هذا الشعر لخوضها. سيعتمر هذا الشعر، وربما سيتفاخر به، كما تتفاخر به جوليا اليوم. وعند هذه الفكرة تبتسم.

ويد كمال في يدها، تقول في سرّها إن مكانها هنا، وأنها وجدتها أخيراً. نَجَتْ ورشة والدها. يمكنه أن يرقد بسلام. وذات يوم سيأتي أبناؤها ليحافظوا على ذريته. ستعلّمهم المهنة وستصحبهم على تلك الدروب التي جابتها معه قديماً على دراجة الفيسبا.

يعود الحلم أحياناً. لم تعد جوليا في سن التاسعة. ولن يكون هنالك أبداً دراجة والدها الفيسبا، لكنَّها تعرف الآن أن المستقبل واعد.

وأنَّه ينتمي لها، من الآن فصاعداً.

سـارة

مونتريال، كندا.

تمشي سارة في الطرقات المكسوّة بالثلج. في بداية شهر شباط، تغدو درجات الحرارة قطبيّة، لكنَّها تشكر الشتاء: فهو ذريعتها. بفضله تذوب قبعتها في حشد المتسكعين، الذين يعتمرون مثلها قبعات ليواجهوا البرد. تصادف مجموعة تلاميذ يمسكون أيدي بعضهم البعض. بينهم توجد فتاة تعتمر القبّعة ذاتها؛ ترمقها بنظرة متواطئة وسلبيّة.

تتابع سارة طريقها. في جيب معطفها، تمسك بطاقة صغيرة أعطتها لها امرأة صادفتها في المشفى منذ بضعة أسابيع. كانتا جالستين في القاعة ذاتها لتلقي العلاج، وبدأتا في الحديث مثل زبونتين على شرفة مقهى. وظلّتا تتحدّثان هكذا طيلة فترة ما بعد الظهيرة. وسرعان ما اتخذ النقاش منحىً ودّياً، كأن المرض يقرِّبُ

إحداهما من الأخرى ويغزل خيطاً خفيّاً بينهما. كانت سارة قد قرأت العديد من الشهادات على شبكة الإنترنت، في المنتديات أو المدوّنات، ما منحها أحياناً إحساساً بأنّها جزء من نادٍ، ومن مجموعة أشخاص اطلعوا، ويعرفون، واجتازوا **هذا**. كان يوجد المحاربون القدماء، **الجيداي**، الذين لم يكونوا يخوضون حربهم الأولى، والوافدون الجدد إلى المرض، **الباداوان**. وهؤلاء الأخيرون عليهم أن يتعلّموا كل شيء مثل سارة. في ذلك اليوم، تلك المرأة في المشفى - وهي **جيداي** بلا شك، اضطرَّت أن تخوض أكثر من معركة، مع أنها ظلّت متحفّظة حيال مرضها - ذكرت ذلك المتجر «للشعر المساعد» حسب التعبير الدارج؛ بكادره المؤهّل والكتوم. أعطَت سارة بطاقة الصالون لتستخدمها **في اللحظة المناسبة**. أثناء الصراع من أجل الشفاء، ينبغي عدم إهمال تقدير الذات، كانت تقول. **يجب أن تكون الصورة التي تعكسها المرآة حليفتك وليست عدوّتك**، استنتجت بنبرةٍ خبيرة.

كانت قد وضعت البطاقة بعيداً ولم تعد تفكّر فيها. حاولَت أن ترجئ موعد الاستحقاق لكنَّ الواقع أدركها.

جاءت **اللحظة المناسبة**. تمشي سارة نحو الصالون في الشوارع المكسوّة بالثلج. كان بمقدورها أن تستقلّ سيارة أجرة، لكنَّها اختارت أن تمشي. هذا يشبه الحج، مسيرٌ يجب عليها أن تمشيه، كطقس طواف. الذهاب إلى هناك يعني الكثير، يعني: قَبِلَتْ أخيراً

بالمرض. لم تعُد ترفضه، ولم تعُد تنكره. تنظر إليه وجهاً لوجه، كما هو: ليس كعقاب ولا كقدر ولعنة يجب أن تتحمّلها، وإنَّما الأصح كواقع وحَدَثٍ في حياتها وكامتحان تواجهه.

وبينما تقترب سارة من الصالون، يستولي عليها شعور غريب. ليس إحساساً سبق أن شعرت به، ولا هاجساً، لا، إنَّه انطباعٌ أعمق، ينبثُ في تفكيرها وفي كيانها كلّه، كأنَّ هذا الطريق، ويا للغرابة، سبق أن ارتادته. مع ذلك، هذه هي المرّة الأولى التي تغامر فيها في هذا الحي. ودون أن تستطيع تفسير الأمر، تخال أنَّ شيئاً ما ينتظرها هناك. وأنَّ لديها موعد فيه، محددٌ منذ وقت طويل.

تدفع باب الصالون. تستقبلها امرأة أنيقة بتهذيب وتقودها عبر رواق إلى غرفة صغيرة مفروشة بأريكة ومرآة. تخلع سارة معطفها وتضع حقيبة يدها. تستغرق وقتاً قبل أن تنزع قبعتها. تراقبها المرأة لبرهة، دون أن تتكلّم.

سأعرض عليك نماذجنا. هل لديك فكرة عمّا تبحثين عنه؟

ليست نبرة صوتها مُجَامِلَة ولا مُتَعَاطفة. إنَّها موزونة، بلا رتوش. وعلى الفور، تشعر سارة بالثقة. تعرف المرأة عمّا تتكلّم بالتأكيد. لا بد أنَّها صادفت العشرات والمئات من النساء في مثل حالتها. لا بد أنَّها تَرَاهُنَّ طيلة النهار. مع ذلك، تشعر سارة في هذه

اللحظة أنَّها فريدة، على الأقل لأنَّها عومِلَت على هذا النحو. لا تهويل ولا ابتذال، وإنَّما فَنٌّ تمارسه المرأة بلطف.

ترتبك سارة من سؤالها. لا تعرف. لم تفكّر بالأمر. تريد... شيئاً ما حيّاً وطبيعيّاً. شيئاً يشبهها في الواقع. إنَّها حماقة إلى حدٍّ ما، تقول في سرّها، كيف لشعرٍ غريبٍ عنها أن يناسبها ويتلاءم مع وجهها وشخصيّتها؟

تتوارى المرأة لبرهة، وتعود بصناديق على شكل علب القبعات. من العلبة الأولى تُخْرِجُ شعراً مستعاراً بلون كستنائي - شعرٌ تركيبي، توضّح، مصنوعٌ في اليابان، تهزُّه بقوّة وهو منكسٌ إلى الأسفل - يتجعد الشعر المستعار أغلب الأحيان في العلب، ويجب إعطاؤه شكلاً بشريّاً، تقول. تُجَرِّبُه سارة بلا قناعة. لم تتعرّف على نفسها تحت هذه الكومة من الشعر الكثيف، إنَّها ليست ذاتها تحت هذه الكرة من الشعر، وتبدو متنكّرة. سعره مناسب، تشرح المرأة، لكنَّه ليس أجود منتجاتنا. تُخْرِجُ من العلبة الثانية شعراً مستعاراً آخر. اصطناعي أيضاً، لكنَّه ذو جودة عالية - مصنف «مريح جداً». لا تدري سارة ماذا تقول، وتمكث متأملة أمام هذه الصورة التي تعكسها المرآة، والتي ليست صورتها حتماً. الشعر المستعار ليس سيئاً، وليس هنالك ما تعيبه عليه، ما عدا أنَّه **يبدو** كشعر مستعار. لا، مستحيل، لا يزال من الأفضل ارتداء وشاح أو اعتمار قبعة. تلتقط المرأة عندئذٍ العلبة الثالثة. تحتوي على أحدث نموذج، شعرٌ بشري،

توضّح. منتجٌ نادرٌ ومرتفع الثمن - لكن بعض النساء مستعدّاتٌ للإنفاق عليه. تتأمل سارة الشعر المستعار بهيئة مندهشة: له لون شعرها ذاته، وهو طويل وحريري وفائق النعومة وكثيف. شعرٌ هندي، تشير المرأة. جرت معالجته وإزالة لونه، وإعادة صبغه في إيطاليا، وتحديداً في صقلية، ثم تمّ تثبيته شعرة شعرة على قاعدة من نسيج التول الشفاف في ورشة صغيرة. استخدموا تقنيّة الضفيرة التي تستغرق زمناً أطول لكنَّها أمتن من التثبيت بالصنارة. ثمانون ساعة عمل لأجل مئة وخمسين ألف شعرة تقريباً. منتجٌ نادر. **تحفةٌ**، كما يقال في المهنة، تُضيف المرأة بفخر.

تُساعد سارة لتضع الشعر المستعار - دوماً من الأمام إلى الخلف، في البداية يبدو هذا صعباً لكنكِ سرعان ما ستعتادين، تقول لها، ومع مرور الأيام لن تعودي تحتاجين حتى المرآة. بالتأكيد يمكنها قصّه على ذوقها في صالون تصفيف الشعر. والعناية به بسيطة، بالشامبو والماء - كأنه شعرها الحقيقي. ترفع سارة رأسها وتتمرَّى في المرآة: امرأة جديدة تقف مواجهتها، تشبهها، وهي في الوقت ذاته امرأة أخرى. إنه شعور غريب. تتعرَّف مع ذلك على ملامحها وعلى بشرتها الشاحبة وعينيها الغائرتين. إنها هي، أجل، هي نفسها بالتأكيد. تمسِّد الخصلات، ترتِّبها وتُنمذجُها في محاولةٍ لا تهدف إلى التّملُّك، وإنما الأصح إلى التآلف. لا يبدي الشعر أيَّة مقاومة، يخضع بانقيادٍ وسخاءٍ. يلائم بهدوء تدوير وجهها، ويستكين. تمسِّده سارة وتداعبه وتمشِّطه، فتجده متجاوباً إلى حدٍّ

أنَّها تشعر بالامتنان له. وعلى نحوٍ خفيٍّ، يغدو هذا الشعر الغريب عنها شعرها، يتوافق مع شكلها وقوامها وملامحها.

تتأمَّل سارة صورتها في المرآة. يبدو لها عندئذٍ أنَّ هذا الشعر يُعيد لها ما فقدته. قوَّتها وكرامتها وإرادتها وكلّ ما يجعلها هي نفسها. سارة القويَّة والفخورة والجميلة. فجأةً تشعر أنَّها مستعدَّة. تلتفتُ نحو المرأة وتطلبُ منها أن تحلق لها رأسها. تريد أن تفعل ذلك هنا والآن. ستضع هذا الشعر المستعار منذ اليوم. ولن تشعر بالخجل من العودة إلى منزلها بهذا الشَّكل. ومن ثمَّ ستنجح في ترتيبه بشكلٍ أفضل دون شعرٍ في الأسفل، سيكون هذا أسهل. على أيَّة حال، سيترتَّب عليها أن تقوم بذلك عاجلاً أم آجلاً، فليكن ذلك هنا والآن، ما دام لديها القوَّة على فعل ذلك في هذه اللحظة.

تُذْعِن المرأة. وبواسطة موس حلاقة، تنجز مهمَّتها بيدٍ رشيقة وخبيرة.

حين تفتح سارة عينيها من جديد، تمكث لبعض الوقت مذهولة. يبدو رأسها الحليق حديثاً أصغر من قبل. تُشبه ابنتها حين كانت في عامها الأوَّل، قبل أن ينمو شعرها -رضيعة، هذا ما تبدو عليه. تحاول أن تتخيَّل ردَّ فعل أبنائها- سيُفَاجَؤون لرؤيتها على هذا النحو. ستريهم إيَّاه ذات يوم. **فيما بعد.**

أو لن تُريهم إيَّاه.

تضع الشعر المستعار على جمجمتها الملساء، بحسب الحركات المحدَّدة، وترتِّب هذا الشعر الذي أصبح شعرها. وأمام صورتها في المرآة، يستولي على سارة يقينٌ: ستحيا. سترى أبناءها يكبرون. ستراهم يصبحون مراهقين وراشدين وآباء وأمهات. وأكثر من كلِّ شيء، تريد أن تعرف كيف ستكون أذواقهم وكفاءاتهم وأحبابهم ومواهبهم. تريد أن ترافقهم على درب الحياة وأن تكون هذه الأم الرؤوم والحنون والودود التي تسير إلى جانبهم.

ستخرجُ منتصرةً من هذه المعركة، ربما مصابة بالهزال، لكن واقفة. لا يهمُّ عدد الأشهر وعدد سنوات العلاج، لا يهمُّ الزمن اللازم لذلك، ستكرِّس من الآن فصاعداً كلَّ طاقاتها، وكلَّ دقيقة، وكلَّ ثانية، لتقاوم جسداً وروحاً المَرَض.

لن تعود ثانية أبداً سارة كوهن، تلك المرأة القوية والواثقة من نفسها التي تُعجب الكثيرين. لن تعود ثانيةً أبداً تلك التي لا تُقهر، ولن تعودَ أبداً بطلة خارقة. ستكون كما هي، سارة، امرأة أساءَت لها الحياة وأضرَّت بها، لكنَّها ستكون موجودة مع ندوبها وعيوبها وجراحها. لن تعود تسعى لإخفائهم. كانت حياتها السَّابقة كذبة وحياتها هذه ستكون الحقيقية.

حين سيترك لها المرض مُهلة، ستصعد إلى مكتبها الخاص، مع بعض زبائنها الذين لا يزالون يثقون بها ويودُّون حقّاً اتّباعَها. سترفع دعوة ضدَّ **جونسون ولوكوود**. إنَّها محاميَّة ماهرة، واحدة من أفضل محامي المدينة. وستنشر على الملأ التَّمييز الذي تعرَّضَت له، باسم الآلاف من الرجال والنِّساء الذين تسرَّع عالم العمل في إدانتهم،

والذين يقاسون مثلها عذاباً مُضاعَفاً. لأجلهم ستقاتل. هذا ما يمكنها القيام به على أحسن وجه. وهذه ستكون معركتها.

ستتعلَّم العيش بطريقةٍ أخرى، وستستفيد من أبنائها، وستخصِّص أيَّام الإجازات للاحتفالات الشَّعبيَّة ولعروض نهاية العام. لن تُفَوِّت عيداً واحداً من أعياد ميلادهم. وستصحبهم في العطل السَّنويَّة، صيفاً إلى فلوريدا، وشتاءً للتزلُّج. لن يسلبها أحدٌ بعد ذلك، لن يسلبها أحدٌ تلك اللحظات معهم، فهي أيضاً حياتها. ولن يعود هنالك جدارٌ ولا أكاذيب. لن تعود أبداً امرأة مشطورة إلى قسمين.

وبانتظار ذلك، عليها أن تصارع ضدَّ البرتقالة الصغيرة بالأسلحة التي حَبَتْها بها الطبيعة: شجاعتها وقوَّتها وتصميمها، وذكاؤها أيضاً. مع عائلتها وأطفالها وأصدقائها. وبعد ذلك بمساعدة الأطبَّاء والممرِّضات وأطبَّاء الأورام وأطبَّاء الأشعَّة والصيادلة الذين يقاتلون كلَّ يومٍ لأجلها وإلى جانبها. تخالُ فجأةً أنَّها في بداية ملحمة فرعونيَّة، وأنَّ طاقة هائلة تنتشرُ حولها. تشعرُ بتيَّار حار يخترقها، هيجانٌ جديد، فراشةٌ وليدةٌ تخفق بلطف في جوفها.

في الخارج، يوجد الناس، توجد الحياة وأبناؤها. ستذهب اليوم لتحضرهم من المدرسة. تتخيَّل الآن دهشتهم - لم تفعل ذلك قط، أو قلَّما فعلته. ستكون هانا متأثِّرة بلا شك. سيركض التوأم نحوها. سَيُبْدُون ملاحظات على قصَّة شعرها وعلى شعرها الجديد.

عندئذٍ ستشرح سارة لهما. ستخبرهما عن البرتقالة الصغيرة وعن عملها وعن الحرب التي سيترتَّب عليهم أن يخوضوها معاً.

وهي تبتعد عن الصَّالون، تُفَكِّر سارة بتلك المرأة في آخر العالم، في الهند، التي وَهَبَت شعرها، وبالعاملات الصقليات اللاتي فَرَزْنَه بصبرٍ وعَالَجْنَه. تفكِّر بالمرأة التي جمعته. تقول في سرِّها عندئذٍ: إنَّ الكون يعمل بانسجام لشفائها. وتخطر ببالها هذه العبارة من التلمود: «مَن ينقذ حياة ينقذ العالم بأكمله» اليوم، العالم بأكمله ينقذها وتوّدُّ سارة أن تشكره.

تقول سارة في سرِّها إنها موجودة، أجل، موجودة بالتأكيد اليوم.

وستظلُّ موجودة لزمنٍ طويل.

وعند هذه الفكرة، تبتسم.

مكتبة

t.me/ktabrwaya

خاتمة

أنهيت عملي.
والشَّعر المستعار أمامي.
شعور فريد يجتاحني.
وليس ثمَّة شاهد عليه.
إنَّه فرحٌ يخصُّني،
إنَّها متعة إنجاز المهمة،
إنَّه الفخر بإنجاز عملٍ متقن.
وكطفلٍ أمام رسمه، أبتسم.

أفكِّر في هذا الشَّعر،
في المكان الذي جاء منه،
في الطريق التي سَلَكها،
والطريق التي سيَسْلكها أيضاً.
أعرف أنَّ دربه ستكون طويلة.
سَيَرَى الكثيرَ من الناس،
ولن أراه أبداً.

فأنا حبيسة ورشتي.
لكن لا يهم، فرحلته هي رحلتي أيضاً.

أهدي عملي إلى هؤلاء النسوة،
المتعلّقات بشعرهنَّ،
كأنَّه جزء من روحهنَّ.
لأولئك اللاتي يعشقنَ ويلدنَ ويأملنَ،
يقعنَ وينهضنَ من جديد، ألف مرّة،
اللاتي ينحنين ولا يستسلمنَ.
أعرف معاركهنَّ،
أشاركهنَّ أفراحهنَّ وأتراحهنَّ.
وكلُّ واحدةٍ منهنَّ هي أنا إلى حدٍّ ما.

لستُ إلّا رابطاً،
صلةَ وصلٍ هزيلة
تنتصب عند نقطة تقاطعِ حيواتهنَّ،
خيطاً رفيعاً مثل شعرة،
لا يراه الناس ولا العيون.

غداً، سأبدأ عملاً جديداً.
حكايات أخرى تنتظرني.
حيوات أخرى.
وصفحات أخرى.

ليتيسيا كولومباني

الضفيرة

ثلاث نساء، ثلاث حيوات، ثلاث قارات. شغف واحد للحرية.

بادلابور، الهند. سميتا امرأة منبوذة تمارس عملاً في غاية الوضاعة. تملأ كلّ يوم سلّتها بغائط الطبقة الأعلى، ولا شيء في الأفق يبشّر بتغيير هذا الواقع.

باليرمو، صقلية. المطلوب من جوليا أن تطيع أبويها، رغم أنها لم تعُد طفلة. تعمل في ورشة والدها ويُؤمَل منها أن تتزوج تاجراً ثرياً ينقذ عائلتها من الإفلاس. لكن قلبها يخفق لشخص آخر، شخص غريب داكن البشرة. معضلتها أبدية.

مونتريال، كندا. حياة سارة نموذجية في تنظيمها، لكنها في الوقت عينه جحيم. لا تحظى بدقيقة فراغ واحدة في برنامجها الذي بوّأها النجاح المهني كمحامية طموحة، حتى جاء اليوم الذي علمت فيه أنها مريضة.

من خلال ثلاث قصص متداخلة، تجعل ليتيستا كولومباني كلّ واحدة من بطلاتها تتقدّم بشجاعة نحو الخيار الذي يخلّصها من حالتها. لن يجتمعن أبداً لكن قصصهن تتشابك في ضفيرة من الأمل والتضامن.

اقرؤوا هذه الرواية الجميلة. انصحوا بها وقدموها هدية، واضفروا منها الأمل، «فيجب أن تُقرأ من جميع نساء الأرض» على حدّ تعبير بائعة كتب فرنسية.

ISBN 978-9953-68-880-0
9 789953 688800

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com